رواية

بضع ساعات في يوم ما..!

محمد صادق

■ الطبعة الخامسة.......... أغسطس 2014

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

المراجعة اللغوية: محمد الكشك

رقم الإيداع: 2011/17425

الترقيم الدولي: 8 - 09 - 5153 - 977 - 978

3 شارع إدريس - أول شارع الوحدة - إمبابة - الجيزة

هاتف وفاكس: 33100951 (202)

محمول: 01147379183

rewaq2011@gmail.com

facebook.com/Rewaq.Publishing

بضع ساعات في يوم ما..!

رواية

محمد صادق

إهداء

في تلك الرواية.. أدين بالفضل لأناس كثيرين لا تتسع تلك الصفحة لاستيعابهم..

يكفي أني أريد إهداءها لكل من أوحى لي بلمحة أو جزء من شخصيات الرواية، مقدرًا فضلهم الكبير علي، لمجرد أنهم (هم)..

أبي الغالي (أحمد صادق).. وأمي الغالية.. أعتقد أني سأظل أهدي جميع رواياتي لكم؛ لأن ما تفعلونه من أجلي يفوق أحلامي بكثير... «ربنا يخليكوا ليّا»..

أحمد جمال، أحمد محمود، أحمد عبد العاطي، محمد فخري، محمود مصطفى، أحمد نشأت، ريم، ياسمين، مي، سارة.. كل منكم أعطاني دون سؤال.. بمحبة صافية وإخلاص نادر.. فأنتم أصدقائي بمعنى الكلمة...

إلى حبيبتي...

الرواية ليست وطنية.. لكني أهديها لكل شهيد في الثورة رفض أن يترك مصر إلا وهي تتزين بدمائه...

«يارب الرواية تعجبكم»...

محمد صادق

مقدمة

إنها بضع ساعات في يوم ما...

ما الذي يمكن أن يحدث؟؟..

الآن يمر الوقت ولا ندري أي شيء عنه... فجأة نجد الساعة تشير إلى الخامسة... ثم ننظر بعدها إلى الساعة نجدها الواحدة صباحًا...

إذن ماذا يمكن أن يحدث في رواية .. تتحدث عن بضع ساعات؟؟!!

سؤال سألته لنفسي.. وحتى الآن لم أجد إجابة عنه..

فلماذا لا نبحث عن الإجابة معًا؟؟...

أول الساعات

الثانية عشرة بعد منتصف الليل

<< أريد شراء بعض السجائر...>>

قالها لنفسه وهو يتثاءب بشدة، ثم نظر إلى ساعته التي تشير إلى الثانية عشرة بعد منتصف الليل بالضبط، ثم أصدر (الكمبيوتر) تلك الرنة المميزة التي تعلن أن هناك من يحدثه على (الماسنجر)، ففتح نافذة الحوار ليجدها (يسرا) صديقته تقول:

– هذا هو الموضوع، فما رأيك؟!... هل أسمع كلامه وأرتدي الحجاب، أم لا؟!... أنا عن نفسي لا أريد أن...

يتثاءب ثانية في ملل وهو ينظر إلى نافذة حوار أخرى، كانت (أمل) هي من تحدثه قائلة:

– ثم إنه من أخطأ، ويريد مني أن أصالحه، هل قامت القيامة عندما لم أبعث إليه رسالة عندما وصلت البيت؟! لقد خرجت لشراء بعض الملابس مع أخي. بالله عليك.. ماذا يمكن أن يحدث لي حتى يقلق – أو يدعي القلق – ويغضب كل هذا الغضب؟!

فتح نافذة أخرى حيث كان خطيب (أمل) يقول:

– لماذا لا يفهمون أننا نقلق عليهم؟! قد يحدث لهم أي شيء، ثم إن طلبي بسيط جدًا... فقط طمئنيني عليك عندما تصلين البيت. هل أصابعها الثمينة

تعب من كتابة الرسالة؟!... لعنة الله على من أراد الزواج يومًا...

شعر ببعض الصداع، فتأكد من أنه يريد السجائر، فكتب لكل من يكتب له، وهو يحمد ربه أنه لم يرتبط حتى الآن:

- brb

ودوّت خلفه وهو ينهض سبع رسائل تقريبًا تقول الكلمة نفسها:

- tyt

كان مرهقًا، لكنه ارتدى ملابس خفيفة رغم برودة الجو، وهبط مسرعًا، كان كل أهل بيته نائمون؛ ليأتي ببعض السجائر من الكشك أمام بيته...

<< السلام عليكم...>>

صوت رقيق قالها، جعله يلتفت ليجد فتاة جميلة، تركب عربة مكشوفة، قربتها من الرصيف ليمكنها محادثته، فقال:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته...

ابتسمت ابتسامة رقيقة وقالت:

- أريد الذهاب إلى العاشر من رمضان... عندي سؤالان...

اقترب من النافذة كي يسمعها، فقالت:

- كيف أذهب إلى هناك؟!... وأين أنا؟!

ارتفع حاجباه في دهشة، وقال مبتسمًا رغمًا عنه:

- سؤالان قمة في الأهمية...

ابتسمت، فقال:

- من أين أتيت؟... وكيف لا تعرفين كل هذا؟!

شعر بعدما سأل أن الجواب المنطقي الوحيد هو << وما دخلك أنت؟>> إلا أنها ابتسمت في هدوء وقالت:

- أنا قادمة من المهندسين... كلموني هاتفيًا ليخبروني أن أبي سقط أرضًا أثناء عمله، فذهبوا به إلى مستشفى في العاشر من رمضان... فلم أفكر وأخذت

العربة وأنا لا أعلم شيئًا عن الطريق... وأخذت أسأل الناس حتى وصلت إلى هنا...

تعجب من لهجتها الهادئة وابتسامتها رغم ما حدث لأبيها، ويبدو أنها فهمت تعجبه، فقالت بهدوء:

- إن أبي إن لم يسقط كل أسبوع مرة، لقلقت عليه... إنها أزمة ربو تأتيه باستمرار ولكنها دائمًا ما تفقده وعيه لا أعلم لماذا، وهو يصر على عدم أخذ أية أدوية... فعنده (فوبيا) ما تقريبًا...

ابتسم، وبدأ لأول مرة يرى عينيها الواسعتين، وفمها الدقيق، وشعرها الناعم المتطاير من الهواء، فقالت بابتسامة:

- لقد أشبعت فضولك، في حين لم تجبني عن أي سؤال...

شعر بالإحراج، فقال مبتسمًا:

- أنت في مدينة نصر... بالتحديد أول شارع الطيران... أما عن كيف تذهبين فهذه قصة يطول شرحها...

ولا يدري لماذا إلا أنه سألها عندما شعر أنه يريد أن يسأل:

- هل تريدين أن أوصلك؟

نظرت إلى الساعة التي تشير إلى الواحدة إلا ربعًا بقليل، وبدا عليها التردد، فابتسم وقال:

- لا تقلقي، فأنا لم أهبط من بيتي مخططًا أن أغتصب أول فتاة تسألني عن الذهاب إلى العاشر من رمضان...

شيء ما في لهجته الهادئة وابتسامته، جعلها تقول - دون أن تدري أيضًا كيف قالتها - بابتسامة:

- حسنًا... لكن أرجو ألا أكون قد سببت أي إزعاج...

ذهب للمقعد الذي بجانبها، وفتح الباب ثم جلس، وقال وهو يمد يده إليها قائلاً:

– (ياسين)...

مدت يدها لتصافحه وقالت:

– (سارة)...

ثم أدارت العربة...

وانطلقا.

* * * * *

عندما أخبرها (ياسين) << brb >> جلست (يسرا) تنتظر قليلاً، ثم زفرت في حنق وقالت:

– أين أنت يا (ياسين)؟!

لا تدري لماذا كانت تشعر بكل هذا التوتر والغضب، لذا، فتحت صفحة الـ (facebook) وأخذت تتأمل أخبار الناس عسى أن تنسى قليلاً ما بها...

<<(أحمد العاصي) أخذ اختبار (كم أنت أبيح) وكانت النتيجة: أنت سافل ومنحطّ...>>

<<(أمنية محمد) تدعوك لمجموعة (إغلاق صفحة الله) التي يدعي فيها أحد الأشخاص أنه الله... ويطلب من الناس أن يعبدوه... والمصيبة أن له حتى الآن ستة عشر ألفًا من المشتركين...>>

<<(أحمد السيد) غيّر حالته العاطفية إلى مرتبط...>>

<<(ياسين المصري) لعب لعبة (بلاك جاك) وفاز فيها..>>

<<(أحمد العاصي) أخذ اختبار (وضعك الجنسي المفضل) وكانت النتيجة (وضعية الكلب)..>>

شعرت بالملل فكتبت في (ما تفكر فيه) جانب صورتها:

– أنا أكره الحجاب... وأكره من يريدني أن أرتدي الحجاب...

نظرت تتأمل ما كتبته، ثم أدركت كم ستثير كلماتها غضب كل من يعرفونها، وستجد تعليقات كثيرة من مدعي الصلاح والهداية، وبزائد شجار كبير مع (أسامة) الذي ارتبطت به منذ شهرين فقط، أخبرها بعدها انه لن يكمل الا لو ارتدت الحجاب... فمسحت ما كتبته ثم كتبت شيئًا آخر:

– مخنوقة...

وضغطت زر «إدخال»، لتجد الصفحة الرئيسية ينضم لها ما كتبته، مع بعض الأخبار الجديدة، ووجدت (اسلام الحسيني) أحد أعز أصدقائها بعد (ياسين) قد أشركها في مقالة كتبها... ففتحتها في هدوء عسى أن تجد شيئًا يلهيها..

<< العنوان: أنا إن قدر الإله مماتي...>>

– يا ساتر..

قالتها لنفسها، ثم أكملت قراءة:

– << هذا العنوان هو جزء من قصيدة، غنتها (أم كلثوم) يومًا، وهي (مصر تتحدث عن نفسها)... سمعتها ورغم عني ذهلت من قوة كلماتها... وذهلت من شعور الناس بمصر وقوتها ومكانتها في سائر الدول، في هذا الزمن...

ورغم عني قارنتها بتلك الأغنية للمطربة اللبنانية، اسمها (80 مليون إحساس)، ولا أدري لماذا، شعرت بتقلص في أمعائي...

كيف تحولت تلك العزة والكرامة والشموخ إلى صوت ضعيف... وكلمات معظمها (شحاتة) كي تجعل الناس يحبون مصر... هل ساء بنا الحال إلى هذا الحد؟!.. بكل بساطة؟!>>

أغلقت المقالة بسرعة، دون أن تتحمل أن تكملها، ونظرت إلى الساعة لتجدها الواحدة إلا ربعًا، و(ياسين) لم يعد بعد، وقد كانت تتوق إلى الفضفضة معه بعض الوقت...

نهضت تتأمل نفسها في المرآة التي بجانب جهازها تمامًا...

فتاة جميلة، بعينيها البنيتين، وشعرها الناعم تمامًا، وجسدها الذي أدار عقول أناس كثيرين، بخصرها المنحوت بيد نحات بارع، وصدر بارز لكن

في اعتدال، ومؤخرة تلهب العقول... هكذا فكرت، وهكذا – من نظرات الناس – تشعر...

كيف لكل هذا الجمال أن يذوب في الحجاب والملابس الواسعة؟...

رن جرس هاتفها المحمول، فاتجهت إليه متوقعة أن يكون (أسامة).. ذهبت متثاقلة فوجدت رقمًا غريبًا، فردت:

– ألو...

– ألو...

قالها صوت دافئ عميق، ولم يضف شيئًا إلى ما قاله مما جعلها تقول:

– من معي؟!

رد الصوت بعد فترة صمت:

– لا أدري ما أقول، أو أقدم نفسي به، سوى أنني (أعاكس)... فأنا مللت من كل شيء، فقلت لم لا أجرب رقمًا... وأتحدث إلى شخص غريب عني...

ابتسمت وقالت في هدوء:

– هل تتوقع مني أن أصدق تلك القصة البلهاء؟!

رد الصوت:

– لأنها الحقيقة، فهي تبدو لك بلهاء... لكنني لا أملك سواها، ولك مطلق الحرية في الإغلاق في وجهي، ولن أحدثك ثانية... صدقيني فلقد أغلق الخط في وجهي ثلاث رجال وفتاتان وطفلة حتى الآن... ولم أحدثهم ثانية!!

ابتسمت، وقد شعرت من هدوء صوته ودفئه، أنها نسيت ذلك التوتر والملل الذي كانت فيه، فقالت وهي تتمدد على السرير:

– وما الهدف؟!

رد الصوت بعد فترة صمت كأنه يفكر:

– تريدين الحقيقة، أم ابنة عمها؟!

قالت باسمة:

– فلنبدأ بابنة عمها...

قال الصوت باسمًا:

– التحدث... فقط التحدث في أي شيء وعن كل شيء لشخص غريب، عسى أن أكسر ملل الأيام ورتابتها...

قالت مبتسمة:

– والحقيقة؟!

بعد لحظة تردد، قال:

– وتعدينني ألا تغلقي الخط في وجهي؟!!

قالت باسمة وهي تتوقع ما سيأتي:

– لن أغلق... أعدك...

قال بهدوء وثقة:

– حلم أي رجل قابلتيه وتقابليه وسوف تقابليه...

صمتت، ولم ترد، رغم أنها فهمت حتى قبل أن يكمل كلامه:

– الجنس... مكالمة جنسية مع أية فتاة...

ورغم أنها لم ترد... إلا أنها لم تغلق...

وساد الصمت...

* * * * *

زفر (محمد إسماعيل) في غضب، عندما أخبره (ياسين) (brb)، وعندما تأخر لم يدر ماذا يفعل، فأمسك هاتفه، وطلب رقم (أمل)، وظل منتظرًا حتى دوت صافرة نهاية المكالمة، فاتصل ثانية، ليجدها ترد هذه المرة فقال بعصبية:

– لماذا لم تردي؟!

قالت (أمل) ساخرة:

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته...

قال بعصبية:

- لماذا لم تردي؟!

بهدوء ردت ربما كي تستفزه ليس أكثر:

- لم أسمعه...

اهتزت قدمه بسرعة من الغضب وقال:

- (أمل)... أنا خطيبك ولست عدوًا لك... ف-..

قاطعته هذه المرة بصرامة:

- ماذا تريد يا (محمد)... هل تتحدث الآن كي تصالحني أم كي تكمل الشجار؟!

صاح هذه المرة:

- أصالحك؟!! أأنت مجنونة؟!! من منا أخطأ في حق الآخر.. لقد نزلت مع أخيك دون علمي، جالس في بيتي لا أفكر في شيء، وأكلمك لأجدك في الشارع، وترتبكين ثم تخبريني أنك مع أخيك... دون حتى أي رسالة... وعندما أكتم غضبي، وأطلب منك أن تخبريني برجوعك، تعودين لبيتك ولا تكلميني... فما هذا بالضبط؟!

لم ترد فصرخ فيها:

- ردي علي...

قالت وقد أوشكت على البكاء:

- ماذا تريد؟!

قال بغضب الدنيا:

- الحقيقة... أين كنت حقًا؟!

قالت ذاهلة:

- ثانية؟؟؟... قلت لك إنني كنت مع أخي و...

صرخ فيها رغمًا عنه:

- كاذبة...

صدمت من صراخه وكلمته الجارحة، فأكمل ثورته:

- لقد حدثت أخيكِ بعد ما أغلقت الخط معك... ولم أخبره بشيء عندما لاحظت ذلك الهدوء في الصوت خلفه، بعكس الأصوات الصاخبة التي كانت خلفك وأنت تحدثينني، وسألته عن مكانه، ليخبرني أنه عند (الميكانيكي) يصلح شيئًا ما في العربة...

تجمدت الدمعة في عينيها وقالت بحزم:

- لماذا كلمته يا (محمد)؟!

صرخ فيها:

- أهذا وقته؟!... أم أنه هروب...

صاحت هذه المرة:

- لماذا كلمته بعد ما كلمتني؟!

وصل إلى مرحلة من الغضب جعلته لا يميز ما يقول:

- لأنني لم أثق فيما قلتِ... هل ارتحتِ الآن؟!... لكن بمنتهى الصراحة... ألا ترين أنني على حق فيما فعلته؟! فها قد اكتشفت أنك كذبتِ عليّ، وربما كنتِ تخونينني وأنا لا أعلم...

صاحت مصدومة:

- كيف تجرؤ؟!... أخونك؟!

صرخ فيها:

- اذن لماذا تكذبين؟!... لماذا تدارين نزولك ولا أكتشفه إلا مصادفة، لماذا؟!

قاطعته صارخة:

- لأنه عيد ميلادك يا أحمق...

أكمل صراخه وهو لم يسمع من كلامها إلا كلمة واحدة:

- أحمق؟!... هل جننت؟!... كيف تقولينها.. بل... كيف تفكرين فيها أصلاً؟!!

صاحت، وقد أثار ارتفاع صوتها أهل بيتها كلهم، فأتى أخوها وأمها، وفتحا الباب وهي تقول باكية:

– وكيف تجرؤ أنت على قول أني أخونك؟!
ذهب إليها أخوها وأمسك الهاتف عندما وجدها قد انهارت في البكاء، وقال:
– ألو...
حاول (محمد) كتم غضبه، وقال بصوت مرتجف من كثرة الغضب:
– أجل يا (مصطفى)... ألم تخبرني أنك عند الميكانيكي؟... عندما كلمتها قالت إنها هبطت معك، بل وتدعي الآن أنها نزلت لشراء هدية لعيد ميلادي وهو بعد شهر..!!!
قال (مصطفى) بصرامة:
– إنها لم تكذب... لقد أوصلتها للمكان الذي تريد أن تبتاع منه هديتك، ثم ذهبت للميكانيكي عندما لاحظت عطلاً ما بالعربة...
بدأت ثورة (محمد) تهدأ، مع شعوره بالندم، فقال:
– حسنًا... أعطني إياها كي أحدثها...
قال (مصطفى) بصرامته وهو ينظر لـ (أمل):
– إنها منهارة الآن... سأجعلها تكلمك عندما تهدأ...
ثم أغلق الهاتف، ونظر لأمه التي تربت على كتف (أمل) مهونة، ثم قال لأمه في حزم:
– اذهبي يا أمي وائتي بكوب من الماء...

ذهبت الأم مسرعة، فأغلق (مصطفى) الباب، ثم أغلق المزلاج، فنظرت له (أمل) نظرة خائفة، فنظر إليها صامتًا...
وطال الصمت...
و(أمل) منهارة في البكاء..
قال (مصطفى) بهدوء ينذر بعاصفة قادمة:
– (أمل)...

نظرت إليه بعينين مليئتين بالدموع، فأكمل:
– أريدك أن تخبريني الآن أين كنت... ومع من؟ وكيف تكذبين على خطيبك، وتجعليني أكذب عليه أيضًا؟!
وانهارت (أمل) أكثر...

ثاني الساعات

الواحدة صباحًا

رن جرس ساعة (ياسين) لتعلن الواحدة صباحًا وهو في العربة مع (سارة)، ولم تكن قد مضت ربع ساعة منذ أن ركب معها، ولم يتحدثا بكلمة واحدة...

كلما اتت بذهنه كلمات ليبدأ بها الحوار، وجدها سخيفة جدًا، فيصمت تمامًا...

قالت (سارة) فجأة وقد ملت السكوت:

– ما هذا الزحام..؟! توقعت في هذا الوقت أن تكون الطرق فارغة...

ابتسم، وقال لها:

– إننا في طريق النصر... سيظل مزدحمًا حتى شارع النادي الأهلي، ثم ننطلق بعدها بسرعة...

قالت باسمة:

– هذا لا يرد على سؤالي... لماذا هو مزدحم؟!

قال متفلسفًا:

– هذه هي مصر يا عزة... زحام شديد طوال الوقت... ثم في هذا اليوم بالذات يهبط كل الناس ليلاً كأنه عيد مثلاً... وكلهم بلا استثناء لا يفعلون شيئًا على الإطلاق... لذا، فأنا أرفع لك القبعة...

ضحكت ولم تعلق، فنظر لها وقال باسمًا:

- كم عمرك؟!

قالت ضاحكة:

- كم تعطيني؟

أعاد رأسه للوراء وصاح:

- يا للسؤال الممل الذي أسمعه من كل فتاة أقابلها... لو قدرت أصغر من سنها الحقيقي تسعد جدًا، ولو أكبر منه، لضربتني بحذائها...

ضحكت، ثم قالت ترد عليه:

- السؤال أيضًا سخيف لو لاحظت، لكني لا أخجل من عمري.. أنا في الخامسة والعشرين... وأنت؟

ابتسم في سخرية وقال:

- كم تعطيني؟!

وأكمل بعد ضحكتها:

- الرابعة والعشرون... أصغر منك بعام...

هزت كتفها بلا معنى، ثم لم تلبث أن صاحت:

- أخيرًا...

قالتها عندما خف الزحام، وبدأت تسير بسرعة نسبيًا ثم قالت له:

- هل أصعد الكوبري أم لا؟!

هز رأسه أن لا وقال:

- سيري من تحته... سنأخذ طريق (السويس) فهو أسرع...

وسارت العربة في طريقها...

* * * * *

<< يابني كفي تلك الاختبارات السافلة التي تأخذها على الـ(facebook)...>>

ضحك (أحمد العاصي) بشدة، وهو يقرأ تلك الرسالة من (ريم) صديقته، في حين أكملت كتابة:

- كل الناس تستخدم هذا الموقع في أشياء نظيفة، أفتح الصفحة الرئيسية لأجد كل أخبارهم طبيعية... ثم أقرأ أخبارك أو أفتح ملفك.. أشعر أنني فتحت صفحة (بورنو)...

كتب لها باسمًا:

- لا بد أن أترك بصمتي في كل مكان يا (باشا)...

كتبت مبتسمة:

- بصمة قذرة...

ضحك بشدة كأنما تقول له إطراء، ثم فتح ذلك الموقع الجنسي ليحمل فيلمًا يشاهده فكتبت له:

- ماذا تفعل؟!

كتب مبتسمًا:

- أشاهد بعض أفلام (البورنو) كما تقولين...

بعثت له بوجه يقيء؛ لتعلن عن تقززها، فقال غامزًا لها:

- لا بد من إرضاء (حمادة) كما تعلمين...

بعثت له نفس الوجه وقالت:

- لعنة الله عليك وعلى (حمادة)...

ثم كتبت:

- لا أعلم لماذا مازلت أعرفك أصلاً... أو حتى أحدثك...؟!

ضحك وهو يكتب:

- لأنني صريح.. لا أكذب ولا أداري ولا أفعل شيئًا أخجل منه.. سأظل هكذا طوال عمري، وهذا شيء نادر بشدة ولن تجديه إلا فيَّ.. ولا تتظاهري أنك لا تعلمين هذا...

كتبت:

- هناك أشياء لا تقال لفتيات يا (عاصي)...

كتب مبتسمًا:

- أي فتيات يا (رامي)؟!... أنت تعرفين أنني أعاملك كصديق لي، وليس صديقة، وهذا مريح، ولا يجعلني أنظر إليك كأنثى أصلاً...

كتبت حانقة:

- ولماذا لا تنظر إليّ كأنثى؟!

ابتسم وكتب:

- لأني لو نظرت إليك كأنثى، لن أرى سوى صدرك... هل تريدين هذا؟ الفتيات بالنسبة لي شيء مادي بحت، وأنا أعرفك يا (رامي) منذ الطفولة، أعرفك كإنسان وشخص، وهذا يجعلني أرتاح معك أكثر...

صمتت وهي لما كتب في ضيق.. ولم تستطع أن ترد..

كتب لها بعد فترة:

- سلام مؤقت يا (رامي)... (حمادة) يناديني...

* * * * *

عندما طال صمت (يسرا) قال الصوت لها:

- غضبت مني... أليس كذلك؟!

لم ترد أيضًا، فقال الصوت الدافئ وقد سيطر عليه الأسف:

- آسف... يمكنك أن تغلقي إذا أردتِ...

خرجت عن صمتها هذه المرة وهي تقول:

- لماذا يفكر الرجال هكذا دائمًا؟ لماذا لا يشغل عقلهم إلا الجنس وينظرون للمرأة كجسد فقط... يريدونها أن تتحجب مثلاً لأن جسدها يثيرهم، يريدونها لا تعمل ليس لترعى البيت، إنما كي لا يراها الآخرون ويفكروا فيها، بل والأسوأ من هذا أنهم يتصرفون كأن هذا من حقهم... لمجرد أنهم رجال؟!

صمت هذه المرة ولم يرد، فأكملت شاردة:

- أنا لا أعترض على فكرة الحجاب... فهكذا يخبرني الدين أن أفعل، لكني أعترض على فكرة تحجج الرجال بالدين من أجل فرض سيطرة ما... كأنما خلقنا نحن لإسعادهم وإرضاء شهواتهم وسماع كلامهم وإنجاب أطفالهم... كيف لي أن أشعر، عندما يؤكد هذا عالمي كله؟! أشعر أن دوري في هذه الدنيا هو إكمال حياة شخص ما؟!

وعندما لم يرد قالت له:

- هذا سؤالي فرد عليه... كيف يفكر الرجال؟!

تنحنح الصوت ثم قال باسمًا:

- لم أكن أعلم أنك من مناصري حقوق المرأة... فهذا كلام قيل منذ قرون...

قالت متململة:

- لست هكذا... ورغم أن هذا الكلام قيل منذ قرون كما تقول... فلماذا تشعر كل فتاة مثلي بهذا حتى الآن...؟

وأكملت شاردة:

- فها أنت ذا كرجل، تتصل بنمرة غريبة؛ آملاً أن ترد فتاة ما عليك.. فتطلب منها بمنتهى الهدوء أن تكلمك مكالمة جنسية... معتبرًا المرأة صوتًا وجسدًا فقط...

لم يرد، فصمتت شاردة...

ثم لم تلبث أن قالت بعد فترة بحسم:

- حسنًا...

قال متسائلاً في تردد:

- ماذا؟!

قالت وعلى شفتيها بسمة:

- ألا يريد (أسامة) أن أتحجب رغمًا عني؟ وإن لم أفعل وقطعت علاقتي معه، سيريد أي رجل بعده إجباري على شيء آخر أيًا كان؟!! أليس دوري في الدنيا

أن أسمع كلام الرجل؟!

قال بتردد:

– (أسامة) هذا شرير!

لم تهتم بما قال وهي تكمل وعينيها تتألقان:

– سأسمع كلام العالم كله.. سأستسلم.. وأتحجب غدًا...

وأكملت:

– لكن بعد أن أتمرد...

قال:

– ماذا تعنين؟!!

قالت مبتسمة:

– لك ما تريد... إذا كان الحقيقة... أو ابنة عمها...

* * * * *

ارتجفت كل ذرة في جسد (أمل)، أمام نظرة أخيها الصارمة، وانهارت في البكاء أكثر، في حين ظل (مصطفى) على هدوئه، وهو يتجه نحو مقعد، ويجلس عليه، وهو ينظر إليها حتى هدأت حدة بكائها، فقال بوجه صارم لا يلين:

– هل انتهيتِ؟!!

أومأت برأسها أن نعم، فصمت قليلاً ثم قال:

– إذن ردّي علي... أين كنتِ؟! ومع من؟!...

طال صمتها وترددها.. فقال هذه المرة بنفس الهدوء واللهجة القاطعة:

– دعيني أوفر عليك مجهود قولها...

ومال عليها ينظر إلى عينيها مباشرة مكملاً:

– كنتِ مع (أيمن)... أليس كذلك؟!

انتفض جسدها رغمًا عنها، كأنما أصابها برصاصة، وارتفعت عيناها المليئتان بالدموع تنظران إلى عينيه الصارمتين نظرة اعتراف أبلغ من مليون كلمة، لكنه لم يرحمها وصرخ فيها:

– أليس كذلك؟!

أومأت برسها أن نعم، وقد انسالت دموعها ثانية على خدها...

وعندما طال صمته، قالت بصوت خافت:

– لم يكن هناك شيء... فقط تشاجر مع زوجته! وكان يريد أن يحكي لأحد ما بداخله حتى يستريح..

قال (مصطفى) ساخرًا:

– وبالطبع لم يجد إلا خطيبته السابقة... ولماذا أقول خطيبته وأجاملك...؟ بل تلك الفتاة التي قرأ معها الفاتحة... ولم يأت في حفل خطوبتهم، وتركها وحيدة تبكي أمام كل الحاضرين... ثم اتصل الفجر ليخبرها أنه لم يكن مستريحًا في العلاقة، فقرر عدم المجيء... لم يجد إلا تلك الفتاة؟!!!

بدأت تبكي ثانية، وهو يكمل:

– أنا أخبرك لماذا لم يجد سواك ليحكي له؛ لأنك بلا كرامة، وبلا عزة نفس تجعله يفكر أصلاً فيما تشعرين، وستظلين طوال عمرك بالنسبة له أداة.. يستخدمها وقتما يريد، ويلقيها وقتما يريد...

قالت له برجاء: كفـــى..

حاول أن يكتم غضبه، ويصمت، لكنه لم يحتمل فتساءل بغضب:

– هل نام معك مثلاً ولا تريدين أن تخبرينا؟؟؟

نهضت من الفراش وهي تصيح فيه بصرامة:

– (مصطفى)!!

صاح فيها منفعلاً:

– إذن أقنعيني!! كيف لا زلت تقابلينه؟! كيف سامحتيه على كل هذا؟! لقد تزوج... تزوج... ومن فتاة أقل منك... فكيف تسامحينه؟! طوال عمري

أسمع أن الفتيات لا ينسين أول من ينام معهن أو يقبّلهن...
فهل فعلتِ ذلك؟؟

صاحت فيه:

– بالطبع لا...

صرخ فيها:

– إذن لماذا؟!

صرخت فيه منفعلة:

– لأني ما زلت أحبه...

قالتها، فساد صمت تام...

* * * * *

ابتسم (إسلام الحسيني) وهو يقرأ مقالته (أنا إن قدر الإله مماتي) للمرة العاشرة تقريبًا، وهو يضغط على أيقونة تحديث الصفحة، منتظرًا أي تعليق من أصدقائه عليها، ثم أدرك أنه مرت ساعة ونصف تقريبًا منذ نشرها وشارك فيها أصدقاءه، الذين يجلس معظمهم الآن أمام الموقع، ولم يترك أحدهم أي تعليق...

قال لنفسه أنهم ربما لم يروها بعد، فقرر أن ينتظر وهو يقرؤها ثانية للمرة الحادية عشرة...

* * * * *

لأنها كانت جالسة، لم ير (ياسين) تنورة (سارة) القصيرة، إلا عندما كان ينظر إليها وهي تنقل السرعة... وعندما ركّز، أدرك أنها ترتدي جوارب خفيفة وشفافة تمامًا، مما أظهر ساقًا بيضاء ناعمة، وبداية فخذ يبشر بالخير إن ظهر منه أكثر...

بجانب عينيها رمقته بنظرة، ثم قالت باسمة:

– إلي ماذا تنظر؟!!

نظر إليها لحظة.. لم يدر فيها ما يقول، ثم ابتسم قائلاً:

– كنت أعتقد أن الجو بارد، فتعجبت أنك ترتدين ملابس خفيفة، وتنطلقين بالعربة بسرعة وهي مكشوفة، أثار هذا فضولي ليس أكثر...

صمتت لحظات طالت، ثم قالت بلهجة شاردة:

– أنا لا أشعر بالبرد إطلاقًا... ولا أشعر بشيء أصلاً..

ثم نظرت له وقالت باسمة:

– كيف لا يشعر شخص بأي شيء على الإطلاق؟!

هز كتفيه وقال بابتسامة:

– هناك سائل ما يدعى (الدم)... اسألي عنه، وعن ثقة سيعطيكِ نتائج باهرة!

ضحكت بشدة، ثم قالت مغيرة الموضوع:

– ما انطباعك عني حتى الآن؟!

لم يتوقع السؤال، لكنه فكر قليلاً، ثم قال:

– لا أدري، لكنك لطيفة!!

– فقط؟!

قالتها مستنكرة، فردّ:

– لماذا لا نغير اللعبة... نسأل سؤالاً لكل منا، على أن يكون الرد بمنتهى الصراحة...

قالت بحماس:

– موافقة... لتبدأ أنت...

قال وهو يريح رأسه على المقعد، كأنما يتوقع إجابة طويلة:

– من أنت؟! بكل تفاصيل حياتك.

* * * * *

" لا بد أن تخبرني باسمك على الأقل"

قالتها (يسرا) مبتسمة، وقد شعرت بانطلاق وحماس وراحة، بعدما قررت هذا القرار المجنون، في حين رد عليها الصوت قائلاً بهدوء:

– ولماذا؟!... ما أهمية الأسماء في شيء؟!!!

ضحكت بصوت عالٍ وقالت:

– أعتقد أن ما سنفعله يحتم علينا أن نعرف أسماء بعض...

تساءل:

هل فعلتِ هذا من قبل؟!!

قالت مبتسمة:

– بالطبع لا... لكني رأيت ما يفعلون في فيلم أجنبي....

فردّ الصوت باسمًا:

–هل تتفرجين على تلك الأفلام؟!

قالت:

– بالطبع لا أيها السخيف... دائمًا أفكاركم قذرة هكذا؟!... إنه فيلم أجنبي عادي، لكن فيه لقطة أو لقطتان....

تساءل:

– هل كبنات عامة تحببن مشاهدة تلك اللقطات؟!

صمتت لحظة مفكرة، ثم قالت:

– معظم الفتيات المصريات يشعرن بالاشمئزاز... والأقلية من تعجبهن هذه اللقطات أو تلك الأفلام...

والصراحة أنا أيضًا أشعر بالقرف الشديد، فمن وجهة نظري أن الرجال يحبوها لأن في النهاية، هناك امرأة عارية في الموضوع... لكن نحن كفتيات لا يفرق معنا هذا الموضوع لأننا أيضًا نساء، فلا شيء جديد...

ضحك الصوت، ثم قال بهدوئه:

– ولا يثيركم شيء في جسد الرجل؟!

قالت وهي تهز كتفها:

– لا...

قال بلهجة خبيثة:

– حتى.....؟!

فهمت ما يريد، فقالت وقد شعرت بلا مبالاة جعلتها تقول ما تريد دون تفكير:

– حتى هذا... شيء مقزز وشكله مقرف ولا يثير نملة... الرجال جسدهم أصلاً يشبه القرود في أشياء كثيرة؛ جسد مشعر.. كرش كبير، ضخامة لا معنى لها، حتى في الشيء الوحيد الذي يميزهم.. بشاعة – وبالنسبة لنا – لا تصدق...

ثم صمتت لحظات مفكرة، ثم قالت ضاحكة:

– حتى القرود تمتاز عنهم بأن لديها مؤخرة حمراء جميلة...

ضحك الصوت بشدة، فضحكت هي أيضًا، في حين تساءل مبتسمًا:

– إذن ما الذي يثيركم؟!

قالت:

– شيء لا تستوعبوه.. أنتم الرجال، مهما أخبرناكم به.. لمسة يد حانية... نظرة حب حقيقية قد تجعلني أطير في السماء، حضن دافئ... إننا نتحرك بمشاعرنا... قد تثيرني جدًا كلمة أحبك...

على الفور قال الصوت:

– أحبك جدًا على فكرة...

ضحكت بملء فمها، فقال بهدوء:

– مستعدة؟!

أراحت جسدها على الفراش، وقالت بلهجة مازحة:

– ليس قبل أن تخبرني باسمك...

قال بإصرار لم تفهمه:

– لا... قلت لك قبلاً... لا قيمة للأسماء..

ولم تفهم لماذا، في حين قال:

– مستعدة؟!

ثالث الساعات

الثانية صباحًا

نظر (أحمد السيد) بحزن إلى حالته العاطفية، والتي غيّرها في الـ (facebook) إلى مرتبط، وزفر في ضيق، عندما وجد تعليق صديقته (سلمى) المقتضب (مبروك)...

هو في معهد هندسي، يعيد السنة الثانية، بعدما أعاد أول سنة أيضًا..

خرج إلى الشرفة، ليضربه الهواء البارد في صدره، لكنه لم يعبأ، وهو يخرج سيجارته، ويشعلها، لينفخ دخانها كأنما يخرج كل ما بداخله في هذه النفخة...

كم يفتقد (سلمى)...

كم يحبها...

تذكر في وسط غضبه، كيف عرفت أن تخطفه من الدنيا كلها، بمرحها، وهدوئها، ونظرتها الساحرة...

تذكر كم شعر بالعجز، عندما لم يستطع اخبار تلك الفتاة الرقيقة التي تصغره بعامين لكن بسبب فشله.. أصبحت في السنة الدراسية نفسها... ولم يستطيع اخبارها بكم يحبها ويقدرها ويريدها كزوجة...

كم يقتله عجزه هذا كل يوم...

لكنها - رغمًا عنه - دخلت حياته... وأصبحت تحكي له كل شيء...

كان داخله قد أصدر قرارًا أن يبعدها عنه تمامًا، أو يبتعد عنها تمامًا، لكنه

ضعف بشدة عندما وجدها تحكي له وتثق به...

لكنه عاد وتذكر قراره...

ففعل كل شيء يمكنه، كي يجعلها تكرهه...

وصدمت (سلمى)...

صدمت عندما رأت ذلك الشاب الهادئ الطيب، يفعل كل شيء تكرهه في صديق، كأنما يخبرها صراحة أنه لا يريدها له أبدًا.. حتى ولو صديقة...

زفر دخان سيجارته بقوة أكبر، كأنما يلعن نفسه لتفكيره في هذا...

وأثمرت خطته ما أراد..

وابتعدت عنه تمامًا...

فتحطَّم...

قطع أفكاره صوت رنين هاتفه، لكنه نظر للاسم، وخفق قلبه في قوة...

كان اسمها...

(سلمى)...

* * * * *

ابتسم (أحمد العاصي) في هدوء، وجبينه يتصبب عرقًا، ثم أشعل سيجارة في استمتاع، ثم فتح نافذة (ريم) وكتب لها:

– عدنا...

وانتظر فترة طويلة ولم يجد ردًا، فكتب لها ثانية:

– (رامي)...

فكتبت له:

– ماذا تريد؟!

عقد حاجبيه، وهو يعتدل في جلسته، وكتب:

– ما بك؟!

طال صمتها هذه المرة، ثم كتبت:

– ماذا تريدني أن أشعر، وأنا أعلم ماذا كنت تفعل منذ ثوانٍ... أنا في قمة اشمئزازي منك الآن...

ابتسم في هدوء وكتب:

– هل كان سيفرق معك إن أخبرتك أنني كنت أحفظ القرآن مثلاً؟ هل كنت ستحترمينني لحظتها؟!

كتبت حانقة:

– لقد مللت هذا المنطق الملتوي... الكذب عليّ أكرهه، لكن تلك الصراحة المطلقة تضايقني أيضًا...

– إذن لماذا تحتملينها؟!... أنت تعرفين أن هذا أنا، ولن أتغير مهما حدث...

– أنت لم تكن هكذا أبدًا... أنا أعرفك...

ثم توقفت عن الكتابة مترددة، ثم لم تلبث أن حسمت أمرها وكتبت:

– حدث هذا منذ وفاة والدك ووالدتك في ذلك الحادث...

شعر بالغضب لثوان، وكتب بسرعة:

– (رامي)... لا داعي لهذا...

كتبت دون أن تشعر بغضبه:

– كنت شابًا محترمًا... وكنت مثالاً جميلاً لشاب في السابعة عشرة... ثم حدث ما حدث.. وبدأت في التغير... أصبحت تشرب السجائر... تركت جامعتك باختيارك ولم تحضر أي محاضرات من أربع سنوات... أصبحت تعشق (الأباحة)... كل هذا وكنت أقول لنفسي إنك تمر بظرف صعب لا يتخيله أحد في حياته... لكن ها أنت ذا، بلا أي أصدقاء إلا أنا وبعض الأصدقاء (الزبالة)، تجلس معهم على القهوة... شاب في الواحدة والعشرين من العمر، بلا أي حياة...

وعندما جاوبها صمته التام، ترقرقت دمعة في عينيها:

– أنا أخاف عليك... أنهار كل يوم عندما لا أجدك تتقدم خطوة واحدة...

يا (عاصي) أنت لا تعلم أنني...

وتوقفت عن الكتابة لحظة، ثم كتبت:

- أحبك...

خفق قلبها بسرعة وهي تنظر إلى نافذة الحوار، وكاد قلبها يقفز من مكانه...

ثم ظهرت رسالة... تقول:

"آخر رسالتين لم تصلا... بسبب عدم تواجد الطرف الآخر... قد يكون خرج من المحادثة... أو حدث له (انقطاع اتصال)...".

فانسابت دموعها أكثر...

وأكثر...

* * * * *

" أنا يا سيدي الفاضل، اسمي (سارة أحمد)... والدي هو (أحمد محمد أبو لمونة) رجل الأعمال المعروف...".

قال (ياسين) مندهشًا:

- أنت ابنة (أحمد أبو لمونة) صاحب أكبر مصانع بلاستيك في العاشر من رمضان؟!...

أومأت برأسها أن نعم في هدوء، ثم قالت مندهشة:

- المثير للعجب أنك تعرف هذا... فهو غير مشهور إلا للكبار فقط، فكيف تعرفه أنت؟!!

ابتسم قائلاً:

- أنا مهندس كيميائي... قدمت لأعمل هناك في هذا المصنع، وقالوا إنهم سيردون عليّ في غضون شهرين..

- وماذا حدث بعدها؟!...

هز كتفيه وقال مبتسمًا:

- اكتشفت أنهم لم يحددوا أي سنة... فقد مر عامان دون رد...

ضحكت رغمًا عنها ثم تساءلت:

- وماذا تعمل الآن؟!

- عاطل منذ عامين ونصف تقريبًا...

ثم أشار لها أن تكمل ما بدأت، فأكملت:

- توفيت والدتي وهي تلدني... فرعاني أبي بحنان مبالغ فيه... يصرف عليّ بسخاء... رغم أنه تزوج مرتين أو ثلاث بعدها، إلا أنه دائمًا ما يمرّ عليّ في شقتي؛ ليسأل عنيّ أنا والدادة (سوسو) التي تعتبرني ابنتها.. وتقيم معي بصفة دائمة...

ارتفع حاجباه في سخرية وهو يقول:

- اسمها (سوسو)؟!

ضحكت وقالت:

- (سميه)... لكن (سوسو) أسهل كما ترى.. المهم... خريجة (إعلام) قسم صحافة.. أعمل الآن كاتبة في مجلة شبابية تصدر في مصر...

قال في هدوء:

- رائع... ربنا يوفقك...

قالت في حماس:

- دورك... من أنت؟!

قال باسمًا:

- (ياسين المصري)... أبي عادي وأمي عادية وأنا شاب عادي، تخرجت في جامعة القاهرة بتقدير (جيد)... هندسة كيميائية... لا أجد عملاً... ربما لأنني ليس لدي واسطة في أي شيء...

قالت مبتسمة:

- فقط؟!!...

قال باسمًا:

– قلت لك، حياة تقليدية وعادية جدًا...

ثم سألها، معلنًا دوره في لعبتهم:

– هل أنت مرتبطة؟!

أصدرت العربة لحظتها حشرجة غريبة، ثم خفضت سرعتها كثيرًا، فأخذت (سارة) تحاول أن تزيد سرعتها ثانية، لكن هيهات، فصرخت:

– ماذا حدث الآن؟!!

قال (ياسين) في هدوء:

– (البنزين)... متى زودتيها آخر مرة بالوقود؟

قالت وهي تنظر له، والعربة تخفّ سرعتها تدريجيًا:

– أول البارحة...

قال وهو يشير إلى نور مضيء في التابلوه وقال:

– هل كانت هذه الإشارة موجودة منذ فترة؟!

أومأت برأسها أن نعم... فقال باسمًا:

– إنه نور انخفاض الوقود... لقد نفد وقودك...

احمرت وجنتاها خجلاً، والعربة تقف في هـدوء... في وسط طريق السويس...

الساعة الثانية صباحًا...

* * * * *

"أأنت مجنونة؟!!"

قالها (مصطفى) لـ (أمل) في غضب...

نظرت إليه. وهي تعلم أنه لن يفهمها أبدًا...

لن يفهم أنها... هي شخصيًا... لا تريد أن تحبه...

لا تريد أن تسامحه...

لا تريد أن تشعر كل يوم أنها خائنة...

بل انها تموت في اليوم عشرات المرات في كل مرة تفكر في (أيمن)، وتقتل عندما تقول لـ (محمد) أنها تحبه. وتكون بداخلها تقولها لـ (أيمن)...

لكنها لا تستطيع أن تنساه...

وكيف تنساه؟!!!

كان أول حبها، وأول حلم في حياتها، وأول لمسة يد، وأول كلمة حب...

إنه لم ينم معها، ولكنه فعل ما هو أكبر...

لقد أخذها في الحب بكرًا لا تعلم شيئًا...

فأصبح هو كل شيء...

انها تحاول أن تنساه في اليوم عشرات المرات...

تقول لنفسها إنه خائن... حقير... وتذكّر نفسها بالألم الذي شعرته عندما تركها وحيدة في حفل خطوبتها... تتذكر كيف كرهته، وكرهت نفسها...

ثم اكتشفت أنه تزوج في الليلة نفسها التي كانت قررت فيها أن تسامحه..

عندما اكتشفت أنها لن تستطيع الحياة بدونه...

وانهارت أكثر...

لكنها رغم كل هذا... وجدت أنها تسامحه...

قلبها هو الذي – رغمًا عنها – يسامح، ويشتاق له...

لا يعلم (مصطفى) أنها هي من كلمته بعد زواجه وليس هو...

لا يعلم أنه – ذات يوم – وجدها واقفة تحت بيته، فقط لتنظر إلى شقته من بعيد، ورآها، فأخبرته أنها افتقدته...

لامها كثير من أصدقائها، بل كانوا في بعض الأحيان يهددوها باخبار (محمد) خطيبها إن لم تتوقف عن جنونها هذا...

لكنها لم تستطيع...

وصارت صديقته...

صار يحكي لها، وهي تسمعه، سعيدة فقط أنها قريبة منه، دون أن يعلم

(محمد) شيئًا...

(محمد)...

ذلك الشاب الطيب، ابن خالتها، الذي انتظر بعد نكبة خطوبتها بعام، ليخبرها أنه يحبها منذ أن كانوا أطفالاً... وأن حلم عمره أن تقبل به زوجًا... وأنه يعدها أنه سيسعدها بكل ما فيه من قوة...

وقبلت...

وكان رائعًا معها... لا تكاد تتمنى الشيء - مهما غلا ثمنه - إلا ووجدته أمامها.. يهديها إياه...

كم هو حنون... كم هو رائع...

لكنها لا تستطيع...

دق جرس هاتفها، لتجد اسم (محمد) فنظرت إلى (مصطفى) الذي كان ينظر إليها، ثم قال وهو ينهض:

- إنه لا يستحق هذا منك...

بدأت دموعها تنسال، في حين قال (مصطفى) وهو يشيح بوجهه عنها:

- إنه يستحق من هي أفضل منك بمراحل...

وانصرف وهو يغلق الباب خلفه في عنف...

ردت على (محمد) بصوت باكٍ:

- آلـو...

ووجدت صوته الحنون يقول:

- أحبك...

انهارت في البكاء رغمًا عنها، فقال بصوت دافئ:

- أنا آسف... كنت في قمة غضبي، فلم أدرِ ما أقول...

لم تستطع أن تنطق بكلمة، فقال ثانية:

- أحبـك...

وظلت تبكي... كما لم تبكِ من قبل...

* * * * *

لم يرد عليها (أحمد السيد)...

ظل ينظر إلى اسمها، لكنه لم يرد...

(سلمى)...

رغم أن خطته نجحت، وابتعدت عنه (سلمى) تمامًا، وقضى أكثر من شهرين في حياته عذابًا، إلا أن أصدقاءهم سعوا بشدة للمصالحة...

وتصالحا...

وعادت مرة أخرى إلى حياته...

ورغم عذابه من بعدها، إلا أن عذابه أخذ يتضاعف من قربها...

كثيرون قالوا له لماذا لا تخبرها والسلام؛ لتستريح من كل هذا، فإن وافقت، تحتمل معك حياتك وتصبر... وإن رفضت، فسينتهي العذاب...

لكنهم لا يعرفون... ولا يفهمون...

إنه - في نظر نفسه - فاشل...

فشل في حياته، فشل في مجموعه، فشل في معهده الهندسي...

إنها تستحق شخصًا أفضل بكثير...

كيف يرضى لها أن تصبح معه في مستقبله وهو لا يرى مستقبلاً؟!!

كيف يعرف أنه - أصلاً - سيصبح زوجًا ناجحًا؟!

كل شيء مارسه فشل فيه، فكيف يضمن أن ينجح معها..

لن يجعلها أبدًا ترتبط برجل هو نفسه لا يراه داخله...

كرامته تأبى تمامًا...

حتى حدث هذا الموقف...

عندما أتى (مجدي) - صديقه - بابن عمه الذي يبحث عن عروس...

وأعجب ابن عمه بـ (سلمى) جداً، وعندما قال هذا لـ (مجدي)، أخبره (مجدي) أن (أحمد) يريدها...

وثارت ثائرة (أحمد)...

وتشاجر مع (مجدي) مشاجرة كبيرة...

فكيف يجعل (سلمى) ملكًا له، ويضيع عليها تلك الفرصة مع رجل ناجح وشاب رائع، يملك شقته وعمله الرائع؟؟..

وكيف يجعل من (سلمى) شيئًا ملكه، وهي لا تعرف، وهو أصلاً لم يخبرها؟!

وهنا صدر القرار داخله...

ذهب في اليوم التالي إليهم، مرتديًا دبلة قديمة لأبيه، وأخبرهم جميعًا أنه خطب...

خطب (فاطمة) بنت عمه في البلد...

ورغم صدمتهم، وعدم تصديق (سلمى)... إلا أن الكلام انتهى...

لم يعد أحد يعتبر (سلمى) له...

غيّر حالته العاطفية لمرتبط...

ولهذا لم يرد على (سلمى)...

وبدأت تنساب على خده دمعة وهو يتذكر...

* * * * *

مرت أكثر من ساعتين، ولم يجد (إسلام الحسيني) أي تعليق على ما كتب...

هل يمزحون؟!

هذه مقالة جميلة، تتكلم عن حب مصر... وكيف تحول هذا الحب إلى شيء بلا معنى ولا معالم، وأصبح مجرد كلمات فارغة...

كيف تجاهلوها؟!

خطرت في عقله فكرة ما...

فتح مقالة جديدة، وكتب عنوانها...

"عن عاهرتي"... قصة قصيرة...

وبدأ يكتب...

* * * * *

خطرت فكرة مرعبة في عقل (يسرا) عندما أصر على عدم ذكر اسمه، وقالت لحظتها في قلق:

– هل تعرفني؟!!... أنت من طرف (أسامة)... أليس كذلك؟!

سمعت ضحكته، فظلت على قلقها، في حين قال الصوت:

– ما الذي جعلك تظنين هذا؟!

قالت متوترة:

– إصرارك على عدم ذكر اسمك... وأسئلتك... هناك شيء غير مريح...

قال الصوت ضاحكًا:

– لا تقلقي... أنا لا أعرفك... ولا أعرف اسمك... لا أعرف في حياتك إلا اسم (أسامة) الذي كررتيه كثيرًا...

قالت بقلق:

– كيف أثق بك؟!!

قال ببسمة:

– وكيف أثبت لك؟!!

قالت بسرعة:

– احلف... واذكر لي اسمك...

ضحك هذه المرة بشدة، ثم قال:

– إذا كان على الحلفان... أقسم بالله العظيم أنني لا أعرفك ولا أعرف شيئًا عنك... أما عن رفضي لذكر اسمي، فهو أنني أجدها وسيلة سطحية جدًا لأن

تعرف إنسانًا ما، ما قيمة اسمي؟ وما الذي يخبرك عني إن قلته؟ إنني حتى لم أختره... فكيف لي أن أقبل العيش بشيء لم أختره لنفسي، بل اختاره لي أناس آخرون؛ لتخليد ذكرى شخص آخر كجدي أو عمي أو خالي... بمنتهى البساطة... أنا لا أعترف بالأسماء، ولو لاحظتِ فأنا لم أسألك عنه حتى الآن...

بدأت ترتاح ثانية، ثم قالت باسمة:

– أنا أصدقك الآن...

قال باسمًا:

– لماذا؟

قالت وهي تضحك ساخرة:

– لا أحد أعرفه يقول هذا الكلام العميق... رغم عدم اقتناعي بما تقول... إلا أنه يبدو عميقًا...

ثم قالت باسمة عندما لم يرد:

– كم عمرك؟!

واستدركت بسرعة:

– ولا تقل لي: إنه ليس من اختيارك وهذا الكلام الفارغ...

ضحك لحظة، ثم قال:

– خمسة وثلاثون...

ارتفع حاجباها في دهشة، وقد توقعت أن يكون أصغر، لكنها قالت ببسمة:

– أنا عمري أربعة وعشرون... في عمر ابنتك لو أنك تزوجت وأنت في الحادية عشرة...

ضحكا، وقال:

– لم أكن قد بلغت بعد... بلغت بعدها بعامين...

ارتفع حاجباها وهي تقول ساخرة:

– لم تخبرني باسمك وتخبرني بميعاد بلوغك؟!... لا أدري ما أقول حقًا...

وانطلقت ضحكاتهما العالية تملأ المكان...

* * * * *

"كيف يستهزئون بالدين الي هذا الحد؟!!"

قالتها (أمنية محمد) وهي تنظر غاضبة إلى صفحة (الله) الذي يدعو فيها ذلك الأحمق الناس أن يعبدوه...

إنها لا تصدق أن يصل الجهل والصفاقة والإلحاد إلى هذا الحد...

إنهم يشركون بالله صراحة وعلانية...

شاب أحمق، أراد أن يفجر قنبلة تشهره وسط الناس، فكتب تلك الصفحة ليجعل منها حديثًا وسط الناس كلها...

والمشكلة ليست فيه...

المشكلة فيمن يشتركون في تلك الصفحة...

ما بين (أحمد) و (مايكل) و (رشيدة)...

هل ضاع الدين إلى هذا الحد...

إنها لا تتخيل...

كانت تحارب بكل ما تملك؛ فهي من أنشأت (جروب) مقاطعة الصفحة تمامًا وطلبت من إدارة الـ(facebook) أن تحذفه... وعندما لم تجد صدى لتلك الدعوة انضمت إلى جروب مقاطعة الـ(facebook) نفسه في يوم محدد؛ اعتراضًا على وجود تلك الصفحة...

"أستغفر الله العظيم"

قالتها ثانية، وهي تجد أن من اشترك معها ومع الجروب الآخر لا يزيد عددهم على مئتين، بينما انضم إلى تلك الصفحة اللعينة ستة عشر ألف مشترك!!...

طوال عمرها، لم ترضَ أن تخوض أي معارك... لا تجادل في الدين مع كثير

من الحمقى الذين يسفهون الدين، ويجعلونه ذقنًا وشاربًا فقط، ولا أخلاق ولا عمق ولا أي شيء...

حتى عندما سب الرسول - عليه الصلاة والسلام - لم تشارك في شيء ولم تحب أن تتحدث كثيرًا في هذا الموضوع، فقط حولت جزءًا من دعائها على ذلك الرجل في صمت...

طوال عمرها تسير في سلام، (بجانب الحيطة) كما يقولون...

لكن إلا هذا...

إلا الله عز وجل...

رغمًا عنها وجدت كيانها يصرخ...

لا...

لا وألف لا...

واعتبرتها قضيتها...

وستظل تحارب حتى تغلق تلك الصفحة...

ولن تستسلم أبدًا...

رابع الساعات

الثالثة صباحًا

أشار (ياسين) إلى إحدى العربات كي تقف، لكنها تجاوزته مسرعة... فنظر إلى (سارة) التي كانت تجلس في العربة وقال:

– مرت ساعة ولم يتوقف أحد...

نظرت إليه مشفقة؛ فقد كان يرتجف بردًا بسبب ملابسه الخفيفة في هذا الطقس البارد، فقالت له مبتسمة:

– لماذا ترتدي ملابس خفيفة هكذا؟!

قال لها:

– لقد نزلت من بيتي كي أشتري بعض السجائر... في أبعد أحلامي لم أكن لأتوقع أن أكون بعد ثلاث أو أربع ساعات على طريق السويس أشير لأي عربة كي تقف، فلك أن تعذريني...

كانت قد أغلقت سقف العربة، وأغلقت الزجاج إلا من فتحة صغيرة تحدثه منها في حين يقف هو في الخارج منتظرًا...

قالت له:

– ادخل العربة كي تشعر بالدفء قليلاً...

هز رأسه في إصرار أن لا، وهو يتجه مسرعًا إلى الطريق، حيث كانت عربة مسرعة تسير، وكاد يقفز أمامها من فرط حماسه وهو يشير إليها، لكن العربة

تجاوزته مسرعة، فركل الأرض في ضيق، في حين ضحكت هي رغمًا عنها..

نظر إليها لحظات ثم اتجه إليها قائلاً بأسف:

– للأسف، لا توجد وسيلة أخرى...

قالت متسائلة:

– ماذا تقصد؟!

فتح بابها وقال باسمًا:

– انزلي...

نزلت في تساؤل، فأشار إلى الطريق قائلاً بابتسامة:

– ستوقفين أنت العربة...

اتسعت عيناها في دهشة، فقال في أسف:

– ضعي نفسك مكان الناس، إلى من ستقفين في الثالثة صباحًا.. شاب أبله يركض في حماس، أم فتاة جميلة تقف، بل والميزة الإضافية أنها ترتدي ما ترتدين؟!!

انعقد حاجباها في ضيق من كلمته، لكنها اتجهت لتقف على الطريق في هدوء، ولم تمض خمس دقائق حتى وقفت عربة فخمة أمامهما بقليل، لتنظر (سارة) إلى (ياسين) الذي هز كتفه وقال:

– هذه هي مصر يا (عيلة).

ضحكت وقالت له:

– ألم تكن (عزة) منذ قليل؟!

رجعت العربة حتى وقفت أمامهما بالضبط، ليخرج منها شاب وسيم، وهو يقول:

– هل هناك مشكلة؟!

* * * * *

نظرت (يسرا) إلى شاشة الهاتف لتجد (أسامة) يتصل في مكالمة أخرى، فزفرت في ضيق، وقالت للصوت:

– (أسامة) يتكلم...

لم يرد عليها، فقالت:

– ابق معي لحظة واحدة...

وضغطت زر تحويل المكالمة لتجد – أول ما تجد – صوت (أسامة) الغاضب يقول:

– مع من تتحدثين؟!

قالت في صوت ملول:

– مع ريهام صديقتي...

قال بالنبرة الغاضبة نفسها:

– ولماذا تتحدثون في هذا الوقت المتأخر؟!

صمتت، وزفرت في ضيق ثانية، فقال بصرامة:

– لا أحب الفتيات اللاتي يتحدثن في الهاتف في أوقات متأخرة...

قالت له كي تنسيه ما يقول:

– كنت أتحدث معها كي تخرج غدًا لأشتري ملابس الحجاب...

صمت لحظة غير مصدق، ثم صاح ونبرة صوته تتغير تمامًا:

– مبارك... هداك الله أخيرًا؟!!

قالت مبتسمة:

– أجل هداني الله أخيرًا... فكيف كنت أمشي في الطريق مطلقة شعري هكذا، مثيرة نصف رجال مصر.. في حين أنه يمكنني أن أتحجب ولا أثير أحدًا على الإطلاق...

لم يلحظ السخرية في صوتها، وهو يقول في حيرة:

– بالعكس تمامًا.. عندما تتحجبين تصبحين أكثر إثارة بكثير، لأن الرجال تحب الشيء المحجوب عن الشيء الواضح المكشوف...

صمتت لحظات غير مصدقة، وكادت تشد من شعرها وتصرخ: (لماذا إذ...

أردت أن أتحجب)، لكنها كتمتها في نفسها، وضحكت ضحكة عجيبة...

حين قال هو في سعادة وفخر:

– لا داعي أن تشكريني يا حبيبتي... أنا مجرد وسيلة... ولست السبب...

قالها في تواضع، فصمتت لحظة، ثم قالت بحسم:

– صحيح يا (أسامة)...

قال لها باسمًا:

– ماذا يا حبيبتي؟!

قالت – بشماتة نوعًا – باسمة:

– لا يصح أن تكلمني بعد العاشرة مساءً... ولا يصح أن تمسك يدي بع
الآن... لا أستطيع أن أخرج معك وحدنا... لا بد من وجود – على الأ
ستة أشخاص معنا... لا تقل لي أي كلام رومانسي؛ لأنك لست زوجي...

ارتبك لحظات وقال:

– ماذا تقولين؟!... إننا مرتبطون ونحب بعضنا...

قالت مبتسمة:

– ألم تسمع آخر الأخبار؟!

وحينما لم يرد قالت بصرامة:

– الارتباط حرام... كسيري دون حجاب تمامًا...

* * * * *

خواء تام

شعر (أحمد العاصي) بهذا بعد ما قالت له (ريم) ما قالت...

" لماذا يا (ريم)؟!..."

قالها لنفسه، وهو مستلق على الفراش، بعد ما أغلق جهازه تمامًا...

أربع سنين مرت عليه دون أن تتحرك حياته خطوة...

وأروع شيء اكتشفه في تلك السنين، هي سياسة الهروب...

عندما يأتي في عقله أي شيء من أوجاع واقعه... يهرب...

كلما تذكر أي شيء... يهرب...

يشاهد أفلامًا جنسية... يلعب قليلاً... يخرج مع أصدقائه... يفعل أي شيء يجعله يبتعد...

هو يعمل بائعًا في مكتبة كبيرة، بمرتب ستمائة جنيه في الشهر، تجعله يعيش دون أن يكون عبئًا على خاله، غير المتزوج، الذي رعاه في بيته بعد الحادث الكبير...

قطع أفكاره صوت هاتفه، ليجد (ريم) فرد عليها ليجدها تقول:

– آسفة...

ابتسم في هدوء، وقال:

– لا تأسفي علي شيء... أنت طوال الوقت على حق يا (رامي)...

قالها وصمت، فقالت:

– لا تصمت هكذا... ليست عادتك...

ابتسم في هدوء ولم يتحدث... فقالت بمرح:

– حسنًا... لأول مرة في حياتي، سأخبرك نكتة أبيحة... عسى أن تتحرك قليلاً...

لم يعلق، فتنحنحت في حرج، ثم قالت:

– واحدة من إياهم، أنجبت، فأطلقت على ابنها اسم (بهيج)...

ابتسم ابتسامة هادئة.. فتنحنحت بحرج ثانية، وقالت:

– واضح أنها سخيفة...

قال باسمًا:

– لا... هي قديمة فقط...

صمتت لحظة مفكرة، ثم قالت بحماس:

- هذه جديدة... واحد صعيدي تزوج، فأخبره أبيه أنها إن كانت عذراء سيعرف بـ...

قطعت حديثها في خجل، ثم قالت:

- أنت تعرف كيف يعرفون أنها عذراء فلا داعي لقولها...

ضحك من خجلها، فأكملت:

- المهم... وقال له أبوه إن لم يحدث هذا فاقتلها على الفور...

مرت أول ليلة بسلام... ثم قتلها في اليوم التالي...

ضحك ضحكة خفيفة، فقالت بضيق:

- هل هذه قديمة أيضًا؟!

قال باسمًا:

- أجل... لكن أسلوب إلقائك رائع...

قالت بضيق:

- حسنًا... دودة وقعت في طبق مكرونة (اسباجيتي)، فصاحت مندهشة (يا لفرحتي... سكس جماعي!!)..

ضحك هذه المرة بشدة... فضحكت معه...

* * * * *

"(محمد)... أنا لا أستطيع أن أحتمل..."

قالتها أمل بصوت باكٍ... فتساءل (محمد):

- تحتملين ماذا؟!

كانت تحاول التماسك، لكن صوتها ضعف رغمًا عنها وهي تقول:

- أريد الانفصال...

انعقد حاجباه، وساد الصمت لحظات طوال، قالت بعدها (أمل):

- (محمد)...

تساءل:

- ماذا قلتِ؟!

قالت وهي تمسك الهاتف بقوة ولا تدري لماذا:

- لا أستطيع أن أكمل حياتي معك...

تساءل بهدوء غريب:

- هل أخطأت في شيء معك؟!... هل أعاملك معاملة سيئة؟!

قالت بسرعة:

- لا... لا بالطبع...

ثم ضعف صوتها وهي تكمل:

- المشكلة فيَّ أنا... فأنا لا أعطيك حقك...

فردّ بالصوت الهادئ نفسه الذي لا يعبر عن شيء:

- أعتقد أن هذا شيء متروك لتقديري أنا... أنا من أقول إن كنتِ مقصرة معي أم لا...

بدأت دموعها تنساب ثانية، في ليلة بكت فيها عشرات المرات وهي تقول:

- أنت لا تفهم شيئًا...

- إذن فهميني...

صمتت تمامًا هذه المرة...

كل ذرة في جسدها تصرخ.. لا تخبريه...

لكن صوت ضميرها كان أعلى...

قالت وصوتها يرتجف:

- أنا لا زلت أكلم (أيمن)...

أطبق صمته هذه المرة على صدرها بثقل غريب...

وبعد ما يقرب من دقيقتين من الصمت، دوى سؤاله كطعنة في جسدها:

- ما زلت تكلمينه فقط؟... أم ما زلت تحبينه أيضًا؟؟!!

هطلت دموعها كأمطار ليلة عاصفة، ولم يطاوعها صوتها أن تجيب...

إلا أن صمتها أجاب عنها...
أجاب عنها تمامًا...

* * * * *

لم تهدأ أمنية لحظة واحدة...

انطلقت عبر (الإنترنت) تجمع كل ما يمكنها من مقالات حامية، ثم تأخذها وتنشرها على الـ(facebook)

كمقالات...

كانت بعض المقالات دينية، وبعضها سياسية كتبها أكبر الكتاب الصحفيين في المعارضة، وبعضها إنسانية.

شيء ما يحركها كي تفعل كل هذا...

كانت دائمًا تشعر أنها بعيدة عن كل ما يحدث حولها... يوم الانتفاضة القريب لم تشارك في أي مظاهرة؛ لأنها شعرت أن هذا في بلد أخرى... كل تلك القسوة والدم والشهداء لا يحدث لهم... بل لأناس آخرين بعيدين عنها...

وعندما ظهرت مظاهرات (كفاية) في الانتخابات، وجاء فتوات يضربون في الرجال والنساء والشيوخ دون تمييز، كأنما هو احتلال آخر على مصر، عرفت تمامًا أن هذه أيضًا ليست بلدها ولا وطنها إن تمردت أو قالت رأيها يومًا... وأنها ضيفة فيها حتى تموت... بل وليس لها حتى كرم الضيافة... فقط اجلسي مكانك صامتة...

فصمتت...

هي خريجة كلية (حاسبات ومعلومات) تخرجت في أربعة أعوام بتقدير (جيد جدًا) لتخرج إلى عالم غريب لا يعرف أحد فيه شخصًا إلا للمصلحة... ولم تحارب أيضًا...

جلست في بيتها تخدم أباها وأمها في هدوء، كأنما لا تريد أن تقاوم أي مقاومة تذكر، وتفعل كل ما يطلبه منها المجتمع كما في الكتاب...

قيل لها إن دورها الآن أن تنتظر العريس... فانتظرت...

تحضر كل حفلات الخطوبة والزواج لأصدقائها، فتقف في هدوء، وتصفق مبتسمة، ولا ترقص ولا تضحك؛ لأن هذا - كما قيل لها - يرخص من الفتاة قليلاً...

ثم رأت الليلة تلك الصفحة على الموقع...

وثارت داخلها ثورة الدنيا...

كل تلك السنين من الصمت والتقبل، تفجرت في هدف واحد فقط...

إغلاق تلك الصفحة...

ابتسمت في سعادة حقيقية، وهي ترى تلك المقالات القوية التي تنشرها والتي جعلت العديد من صديقاتها يتحمسون ويعلقون تعليقات حماسية...

جعلتها تشعر بالرضا...

إنها الثورة...

ثورتها...

* * * * *

أخذ الشاب الوسيم يفحص العربة، ثم نظر إليهما قائلاً:

- لقد نفد الوقود...

ابتسم (ياسين) في غيظ وهو يقول:

- كنا نعلم هذا من نصف ساعة مضت... فبدلاً من تضييع وقتنا، أوجد لنا الحل...

ابتسمت (سارة) في هدوء، في حين لم يلتفت إليه الشاب وهو يتجه إلى

(سارة) قائلاً:

– اسمي (عادل الصاوي)... طبيب أسنان...

قالت (سارة) باسمة في تعجب وهي تصافحه:

– تبدو صغيرًا جدًا على تلك المهنة...

ضحك في هدوء وقال:

– إنني متخرج من ثلاث سنوات... لكن لي عيادة خاصة في مدينة نصر...

ارتفع حاجباها في انبهار وابتسمت، فقال (ياسين) ناظرا إليهما بحنق:

– وكيف تحتمل تلك الحياة الصعبة بين العيادة والقيادة ليلاً...؟!

نظر إليه (عادل) لحظة في عدم فهم، ثم ابتسم قائلاً في غير تركيز:

– ظريف جدًا...

ثم التفت إلى (سارة) قائلاً بابتسامة:

– هناك محطة وقود على بعد ربع ساعة بالعربة... تعالي معي لنأتي بوقود، ثم أعيدك هنا ثانية...

هزت كتفها قائلة:

– لا أريد أن أتعبك معي...

قال باسمًا:

– لا تعب على الإطلاق...

قال (ياسين) لـ (سارة) وهو يبتسم:

– (سارة)... هل يمكنني التحدث معك لحظة؟

نظرت إليه متسائلة، فجذبها من ذراعها بعيدًا عن (عادل)، وقال لها هامسًا لكن بلهجة حادة:

– بالله عليك ماذا تفعلين؟!... هل أنت مجنونة؟!

قالت له مستنكرة:

– ماذا تقول؟!

قال لها بحدة:

– الساعة الآن تقترب من الرابعة صباحًا... هل ستركبين مع رجل غريب وحدك.. وفي عربته؟!

قالت بحدة:

– وما المشكلة؟! إنه يبدو محترمًا... وهو يريد المساعدة...

قال وهو يكاد يصرخ فيها:

– يبدو محترمًا؟؟... هذا هو إثباتك؟؟!!

صمتت وهي تنظر إليه، فأكمل بعصبية:

– ثم إنه غير مريح إطلاقًا... بتلك البذلة الفخمة والعربة الأفخم...

قالت ببرود مفاجئ:

– ما المشكلة إذن؟!

لم يدر ما يقول فهز رأسه وقال:

– لا أدري... لكن صدقيني... لا يؤدي رجل غريب مساعدة لفتاة ما، وبكل هذا الحماس، إلا لو كان يريد منها شيئًا...

نظرت إليه لحظات، ثم ابتسمت قائلة:

– من ثلاث ساعات عرض رجل غريب علي أن يوصلني، ووافقت لأنه يبدو طيبًا وعلى خلق... وجاء معي حتى هنا... ليعترض على وجود رجل غريب آخر...

ثم قالت بصرامة مفاجئة:

– هما شيئان لا ثالث لهما... إما أنك مثله، كنت تريد شيئًا ما مني... أو هو مثلك... رجل طيب يريد المساعدة...

نظر إليها وإلى عينيها الصارمتين لحظة، ثم قال بحسم:

– لك ما تريدين... لكنني سآتي معكما...

قالت وهي تنصرف عنه:

– لا...لا بد أن يبقى أحد في العربة...

والتفتت له قائلة بلهجة قاطعة:

– أبي في المستشفى وأريد أن أراه... أنا كبيرة وأستطيع رعاية نفسي... ولا أريد احتمالاً ولو صغيرًا أن تسرق العربة...

قال بصرامة:

– إذن سأذهب أنا معه...

وابتسمت في سخرية، وقالت:

– وتترك فتاة مثلي وحدها وسط الطريق؟!

وأعطته ظهرها وانصرفت بهدوء ليستقبلها (عادل) بابتسامة مشرقة، خلفه نظرات (ياسين) الغاضبة الصامتة..

قال لها (عادل) شيئًا ما، ثم اتجه نحو (ياسين) الذي وقف مستندًا إلى العربة وتوقف أمامه وقال مبتسمًا:

– هذا الموضوع جديد جدًا عليّ...

نظر إليه (ياسين) في تساؤل، فقال غامزًا بابتسامة:

– كنت أشك في البداية... حتى جاءت وحدها لتركب معي... فلو كنت أخوها أو زوجها أو خطيبها لما تركتها أبدًا... لكن أهنئكما على الثقة..

فالموضوع محكم تمامًا بالعربة والوقود النافد...

لم يستوعب (ياسين)، حتى سأل (عادل) ناظرًا إلى (سارة) في اشتهاء:

– بكم الساعة إذن؟!

وفهم (ياسين) كل شيء...

* * * * *

أغلقت (يسرا) الهاتف مع (أسامة) بعد شجار طال، ظل يتحدث فيه بعصبية بصدد فتاوى عن أن حبهم هذا حلال، وإمساك اليد ليس زنا، بعيدًا قليل منه لا خطر، وأن الحجاب فرض عليها، لكن العين لم يذكر شيئًا عن الارتباط في الزمن الحديث!!!

شعرت بشيء ما ينقصها بعدما أغلقت الخط معه...

ثم تذكرت...

طلبت رقمه في سرعة، لتجده يغلق المكالمة.. فشعرت بالقلق لحظات، ثم دوى جرس هاتفها، لتبتسم في سعادة وترد عليه...

قالت مبتسمة:

– كيف تغلق؟!... ألم تخش أن لا أتكلم ثانية؟!

قال صوته الدافئ الذي افتقدت الراحة التي تشعر بها عندما تسمعه:

– أنا أكبر من هذا... لك مطلق الحرية في أن تكلميني أو لا... لست مجبرة على شيء...

تذكرت (أسامة) وكلامه فقالت:

– قبل الكلام في أي شيء... أنتم أيها الرجال جنس لا داعي له على الإطلاق... عقل صغير وسخافة لا حدود لها...

ضحك ضحكة قصيرة ثم قال:

– وأنا لا أعترض على هذا... لكل منا رأيه... فلتقل ما تريد...

عادت واسترخت على فراشها، كما تفعل دومًا...

عندما تسمع صوته...

تساءلت في ابتسامة:

– قل لي الآن... ماذا تفعلون في تلك المكالمات الجنسية؟!...

* * * * *

كانت (أمل) ترتجف...

لقد أغلق (محمد) الهاتف معها بعد أن أخبرته بكل شيء منذ نصف ساعة وأكثر... ولم يعلق...

ظل هادئًا تمامًا طوال المكالمة...

كم شعرت أنها حقيرة...

كم أرادت أن تكلمه بعدها؛ لتخبره أنها آسفة...

كم تشتاق لسماع صوته كي تشعر بالأمان....

لكنها جرحته...

جرح في كرامته، وفي رجولته...

لم تستطع التحكم في ارتجاف جسدها، كأنما تشعر ببرد شديد...

كلمت (محمد) عشرات المرات لكنه لم يرد....

كل ما تريده، شعرت فجأة أنها تريد سماع صوت آخر، يعطيها الأمان...

صوت (أيمن)...

أمسكت الهاتف في تردد، وظلت تنظر إليه...

لاسم (أيمن) ورقمه....

وكتمثال من الشمع، ظلت على هذا الوضع ربع ساعة كاملة...

ثم حسمت أمرها....

وضغطت زر اتصال...

خامس الساعات

الرابعة صباحًا

كتب (إسلام الحسيني)...

(عن عاهرتي).... قصة قصيرة...

" عندما ولدت... وجدتها معي... يمكنك أن تقول إننا كنا جيرانًا ولكن بالضبط كانت جميلة جدًا..

لكن لا أدري لماذا كانت حزينة طول الوقت، لمحة من الشجن دائمًا ما كانت تلمع في عينيها... كنت أرتاح معها جدًا... تحدثت لها كثيرا لكنها قلما تحدثت معي... كانت تسمعني أحكي فتجيب بصمتها... لكني كنت متأكدًا أنها تسمعني وباهتمام...

كنت دائما ما أغيظ أصدقائي بها... أشير إليها وأخبرهم أنني صديقها... وأنها هي من أحكي لها، وأنني أعرفها منذ صغري... وكانوا يحسدونني على هذا بشدة... وكبرنا... ازداد طولي واشتد عودي، لكنها لم تختلف كثيرًا.. أصبحت فقط أنثى جميلة يطمع إليها الجميع... حتى جاء يومًا ذلك الجار الفرنسي... لاحظت أنه أثار انتباهها كما أثارت انتباهه... كنت ألاحظ دائمًا نظرته إليها التي تظهر رغبة شديدة... انتظرت أن تخبرني لكنها لم تفعل...

ثم جاء اليوم الذي وجدت فيه ذلك الشاب يخبرنا ويخبر أصدقاءه بفخر شديد أنه نام معها... وأخذ يصف كيف ذاق من عسلها، حتى ثارت ثائرتنا،

فكيف يتحدث عن فتاة منا هكذا؟ وكيف نسمح له... فضربناه ضربًا مبرحًا
وطردناه من المنطقة...
وعندما سألتها لماذا سلمت نفسها له، رمقتني بنظرتها الحزينة، وأطرقت
برأسها وهي تنصرف عني...

ثم جاء ذلك الشاب الذي يتحدث الإنجليزية... كان شابًا محترمًا ارتحنا إليه
كثيرًا ومنحناه ثقتنا؛ لما يبدو عليه من وقار وأدب...
لاحظنا كلنا أنها بدأت تمشي معه وتضحك، ولاحظنا أنه بدأ ينظر إليها
نظرة مختلفة... نفس نظرة الشاب السابق لها، وانتبهنا جميعا حتى لا يحدث
ما حدث من قبل، لكن الشاب خالف توقعاتنا، وصارح أباها أنه يريدها
له، ويتزوجها... فرحنا جميعا لهذا الخبر... كان يعرف ما حدث قبلاً لكنه
وافق... وقبل أن نعلق أضواء الفرح، وجدناه يبتسم ابتسامة لزجة، ويخبرنا
أنه نام معها مرارًا، وكانت راضية ومستمتعة بكل ما يحدث لها... وطوال
هذه السنين لم يلاحظ أحد... ثارت ثورتنا ثانية.. ولم نصدق كيف كنا بتلك
البلاهة... ضربناه ضربة مبرحًا وطردناه من المنطقة شر طردة... وانفجرت فيها
صارخًا لماذا تفعل هذا بنفسها؟ لماذا تفعل هذا بنا؟... جاوبتني بصمت تام،
ورمقتني بنظرتها الحزينة... ثم انصرفت...

هل كنت أحبها؟؟ لا أدري... هي من تربيت معها وأستريح معها ليس أكثر...
حتى جاء ذلك الشاب المصري... الذي أعلن أنه يريد الزواج منها، ويريد أن
يسترها في بيته رغم أنه يعلم بكل ما مر بها...
وكانت فرحة طاغية، يوم عرسها، رقصنا كلنا وفرحنا، والتمعت في عينيها
لأول مرة في حياتها، نظرة فرح وسعادة...
ثم بعد سنين مات...
مات وتركها وحيدة... لأي كلب ضال ينهش لحمها، واستسلمت هي...

أصبحت أمشي في الشوارع أسمع تأوهاتها، أسد أذني، لأرى جسدها ملقى
على الأرض فوقه رجل عجوز لا يريد أن يتركها أبدًا مهما قاومت...
وأصبحت لا أخبر أصدقائي عنها...
أصبحت أنفي أني أعرفها...
أخجل من ذكر اسمها أمام الناس...
وكانت تلك هي قصتي... مع من تملك النظرة الحزينة... الصامتة...
مع عاهرتي...

* * * * *

" ما هذا الذي فعلته يا ابن البلهاء....."
قالها (مجدي) في سخرية لـ (أحمد السيد) الذي ابتسم دون تعليق، فأكمل
(مجدي):
- أنت لا تدري ماذا فعلت بـ (سلمى)؟!
صاح فيه (أحمد) بضيق وهو يريد إغلاق الهاتف:
- لا داعي لهذا الهراء... ستخبرني أنها انهارت في البكاء وكادت تنتحر...
أنا لن أصدق أي شيء ستقوله؛ فهي لا تحبني ومستحيل أن تفعل...
ضحك (مجدي) بقوة، ثم قال:
- بالطبع لم تفعل (سلمى) كل هذا... فقط هي حزينة منذ أن عرفت.. ولم
تستطع التظاهر حتى بأنها طبيعية... حزينة فقط...
نظر (أحمد) إلى ساعته وهو يقول:
- وهل عرفت هذا في الرابعة صباحًا...؟!
فأجاب (مجدي) بسرعة:
- يا فتى أنت من ألقيت قنبلة هرائك هذا وانصرفت... حضرت محاضرتك
وتركتنا في الكافيتريا... ظلت جالسة لا تتحدث... ولم تحضر أي محاضرة.. لا

ترد على من يحدثها...

خفق قلب (أحمد) رغمًا عنه...

هل تحبه؟!...

إنه – كعادة كل من يحبون من طرف واحد – يرى أنه من المستحيل أن تفكر فيه؛ لأنها في نظره ذلك الملاك الرائع الذي مستحيل أن يخطئ باعتباره عيبًا...

لذا فلم يصدق ما قاله (مجدي)...

رغم أن (مجدي) لم يكذب عليه قط...

إلا أن هذا لم يمنع خفقان قلبه... بين دقة أمل... ودقة خوف

* * * * *

استيقظ (باسم عبد الرحمن) على اهتزازات هاتفه (المحمول) ففتح عينيه متكاسلاً، وهو يغلق المنبه في محموله، وظل على وضعه في الفراش، مستمتعًا بدفء فراشه اللذيذ، ثم لم يلبث أن نهض في هدوء، وارتدى خفه ليذهب إلى الحمام ويغسل وجهه ثم يتوضأ...

طوال عمره يحافظ على تلك العادة.. أن يستيقظ قبل أذان الفجر بقليل، ليجلس مع نفسه قليلاً، ثم يصلي الفجر ويذاكر حتى الصباح إن كان هناك امتحانات، أو يجلس فقط ليتأمل شروق الشمس في شرفته، ثم يذهب إلى جامعته...

هو طالب بمعهد (الألسن) رغم تفوق مجموعه، لكنه اختاره؛ لأنه الأقرب، ولأن فيها الكثير من أصدقائه...

أخذ كوبًا من الشاي وذهب إلى الشرفة، وجلس على كرسيه المفضل الذي وضع خصيصًا له وتأمل الدنيا...

ما أروع مصر عندما تكون صامتة...

كل شيء حوله صامت تمامًا، وضوء النهار يبدأ بخجل الإعلان عن نفسه وسط ظلام الليل السائد في هذا الوقت...

ابتسم ابتسامة فرحة، ووضع قدمه على سور الشرفة في هدوء... واستمتاع...

* * * * *

"ألـــو..."

قالها (أيمن) في تكاسل وهو يرد على الهاتف، ليجد صوت (أمل) الباكي يقول:

– (أيمن)....

نهض من فراشه وهو يقول متوترًا ناظرًا بطرف عينه إلى زوجته النائمة بسلام:

– ماذا هناك؟!

قالت بصوتها الباكي:

– أنا و(محمد) سننفصل...

خرج من غرفته وهو يغلق الباب في هدوء؛ حتى لا تستيقظ زوجته، ثم قال بصوت بارد:

– لماذا؟!

ارتبكت ولم تدر ماذا تقول، ثم قالت كاذبة:

– لقد رآنا ونحن مع بعض اليوم...

وقع قلبه في قدميه، وقال بصوت خرج متوترًا رغمًا عنه:

– وماذا فعل؟!

قالت جزءًا من الحقيقة هذه المرة:

– لا أدري... لقد كان هادئًا... لكن ذلك الهدوء الذي ينذر بعاصفة...

صاح فيها متوترًا:

– كيف كنت بهذا الاستهتار؟! أي حمقاء أنت؟! ألا تعلمين أنه ضابط شرطة؟! ويمكنه بمنتهى البساطة أن يأخذني في أي وقت ليفعل بي ما يشاء...

وارتجفت قدماه فلم يستطع الوقوف، فجلس على أقرب مقعد، و(أمل) تقول:

– (محمد) من أحسن رجال الشرطة خلقًا... ثم إنه يحبني...

صاح فيها:

– تقصدين كان يحبك... أنت في نظره الآن خائنة... سينتقم مني بالتأكيد...

وضرب بكفه على قدمه بعصبية وهو يقول...

– لا أصدق أن مستقبلي قد ضاع من أجل بلهاء مثلك...

صاحت مصدومة:

– (أيمن)... كيف تقول هذا؟! قلت لك إن محمد لن يفعل شيئًا لك...

ضحك في استهزاء وعصبية، ونهض ليجيب على جرس الباب الذي دق منذ لحظات وهو يقول:

– لن يفعل شيئًا لك... لكن لي أنا سيفعل الكثير...

وفتح الباب، ليجد ذلك الشاب الوسيم، الذي يبتسم في رصانة قائلاً:

– السلام عليكم...

انعقد حاجبا (أيمن) في تساؤل، في حين انقبض قلب (أمل) في عنف...

عرفت صوته، قبل حتى أن يقول لـ (أيمن):

– اسمي (محمد)... (محمد إسماعيل)...

وهوى قلب (أيمن)... في قدميه ثانية...

* * * * *

شعر (ياسين) بغضب هائل يمتلكه، وضم قبضته مستعدًا للكم (عادل) مباشرة، ولكن ذرة واحدة من التعقل جعلته يتماسك ويتسم ابتسامة غريبة جعلت (عادل) يبتسم في ارتباك، في حين قال (ياسين) بالابتسامة الغريبة نفسها:

– (سـارة)...

التفتت إليهما (سارة) ثم اتجهت نحوهما في هدوء، وزاد ارتباك (عادل) الذي لم يفهم، حتى وصلت (سارة) إليهما، فالتفت إليها (ياسين) قائلاً بنفس البرود والابتسامة:

– الأستاذ (عادل) يسألني سؤال مهمًا... بكم ساعة حضرتك؟!!!

نظرت إليهما بعدم فهم، ثم نظرت لساعتها وقالت متعجبة:

– بمائة وخمسين دولارًا...

صفر (عادل) بفمه، وقال مستنكرًا:

– هذا كثير جدًا...!!!

ابتسمت وقالت مشيرة إلى ساعتها في فخر:

– لماذا؟! إنها من (أمريكا)... كما أنها أصلية...

قالتها وهي تقرب يدها من عينيه كي يرى الساعة جيدًا، فانعقد حاجبا (عادل) وقال في استنكار:

– عن ماذا تتحدثين؟!

انفجر (ياسين) في الضحك، و(سارة) تكمل بنفس الفخر:

– عندما سافرت (أمريكا) مع أبي... رأيتها وأعجبتني جدًا وكنت سأموت كي أشتريها، لكنه رفض بشدة... لأجدها في اليوم التالي موضوعة على الوسادة جانبي، مع ابتسامة أبي الحنونة... لن أستطيع أن أنسى ذلك اليوم أبدًا...

قالت آخر الكلمات بصوت حنون، جعل (عادل) يرتبك أكثر، ثم قال مؤثرًا السلام:

– إنها فعلاً ساعة رائعة...

نظر له (ياسين) نظرة صارمة، وهو يقول:

- (عادل) أخبرني بشيء طريف الآن...

فنظر إليه (عادل) نظرة رجاء أن يصمت، لكن (ياسين) أكمل بهدوء حازم:

- لقد عرض عليّ أن يأتيَ هو بالوقود؛ لأنه لا يصح أن تركبي معه وحدك...

نظر (عادل) إليه نظرة شكر، وقال ملتقطًا الخيط من (ياسين):

- أجل... لا يصح إطلاقا... سأذهب لآتي بالوقود وأعود حالاً..

قالت له (سارة) في بسمة جميلة:

- لا أصدق أن هناك من في شهامتك في هذا الزمن...

هز (عادل) رأسه بلا معنى وهو يقول:

- هذا لا شيء... إنه واجبي...

قالها وهو يتجه إلى العربة في سرعة، فتأملته (سارة) في إعجاب واضح حتى ركب عربته وانصرف، ثم التفتت إلى (ياسين) حسرة:

- أرأيت كم هو شاب رائع... وكم أنت أحمق في حكمك على الناس؟!

نظر إليها طويلاً، ثم ابتسم ابتسامة حانية، وقال بهدوء:

- المهم ألا تتلوث تلك البراءة والسذاجة يا فتاتي...

لم تفهم، في حين اتجه وركب السيارة في هدوء...

يلوم قلبه على تلك الدقات العالية...

* * * * *

أضاء هاتف (باسم عبد الرحمن) برسالة من صديقته الصدوق، فتأمل رسالتها بابتسامة...

<< حان الآن موعد أذان الفجر.. هيا قم صلِّ وادعُ لي..>>

نهض تاركًا كوب الشاي الفارغ، ثم غسل فمه، وفرد سجادة الصلاة في اتجاه القبلة، وبدأ يصلي ركعتي السنة حتى انتهى، ثم بدأ في صلاة الفجر.. وفي

الركعة الأخيرة، ظل راكعًا فترة طويلة... يدعو...

<< اللهم إني أحمدك على كل شيء... اللهم عفوك ورحمتك...>>

ثم صمت لحظات، وأكمل دعاءه في تردد:

- اللهم اشفني.

وانتهى من صلاته، مبتسمًا كعادته بعد كل صلاة فجر...

نهض وفتح جهاز (الكمبيوتر) ليجلس إليه قليلاً، ثم فتح الـ(facebook) ليجد أول ما يجد مقالة (إسلام الحسيني)، فعقد حاجبيه وهو يقرؤها، ثم كتب بعد سبعة عشر تعليق وجدها خلال نصف ساعة من نشرها:

- لماذا يا (إسلام)... لم أعهدك تكتب تلك الأشياء...

وهز رأسه في أسف...

* * * * *

انتفض جسدا (أيمن) و(أمل) عندما نطق (محمد) اسمه...

وعندما طال الصمت، ابتسم (محمد) ابتسامة رغم رصانتها إلا أنها تبدو مخيفة، وهو يقول:

- هل سأظل واقفًا هكذا؟؟... ألن تدعوني للدخول؟

وضع (أيمن) الهاتف في جيب صدره كأنما يخفي جريمة، وقال وهو يحاول فاشلاً أن يداري خوفه:

- بالطبع.. بالطبع... تفضل بالدخول...

دخل (محمد) بثقة، ثم جلس في هدوء بعد أن قاده (أيمن) إلى الصالة، وقال بابتسامة لزجة:

- أتريد أن تشرب شيئًا؟

هز (محمد) رأسه أن لا في هدوء، وأشار إلى (أيمن) بالجلوس، فأطاع (أيمن) الإشارة كالمنوم مغناطيسيًا، لكنه جلس على طرف المقعد كمن يستعد للركض

في أي وقت، وقد بدأ العرق يبلل مقدمة رأسه...

وصمت منتظرًا أن يتكلم (محمد)...

لكنه لم يفعل...

ظل يرمقه بنظرة، شعر (أيمن) أنها تغوص داخله، لتعرف كل ما بداخله، فازداد خوفًا وحاول أن يبدو شجاعًا وقال:

- ماذا تريد؟

لم يرد عليه... فقال وقد بدأت العصبية تغزو صوته:

- أظن أن هناك سببًا وجيهًا، جعلك تأتي في الرابعة صباحا...

ظل (محمد) ناظرًا إليه تلك النظرة، فصمت (أيمن) وقد بدأت قدمه تهتز في عصبية وصمت (محمد) يقتله، فقال فجأة ودون مقدمات:

- أنا لا علاقة بي بأي شيء... هي من ظلت تطاردني وتكلمني يوميًا... وأكثر من مرة أخبرها أنه لا داعي؛ فهي مخطوبة لك... وأنا متزوج... فلا داعي للمشاكل... إلا أنها أصرت...

لم يعلق (محمد) أيضًا، فأكمل (أيمن):

- حتى اليوم... عندما قابلتها... ذهبت كي أنهي معها كل شيء... قابلتها كي أخبرها أن هذا الوضع خطأ... زوجتي بدأت تثير المشاكل بسبب مكالماتها الكثيرة... وأنا أحب زوجتي... ولا أريد أن أجرحها... لكن...

قطع كلمته وهو يعتدل في جلسته، وقال لـ (محمد) الصامت كقبر:

- لكن أنت تعرف... (أمل) هي الوحيدة في حياتي التي سببت لها ألمًا كبيرًا... كانت تحبني، وتركتها يوم خطبتها... فشعرت بالذنب... لذا وافقت مؤقتًا على هذا الوضع؛ لأني أحاول تعويض ما فعلته بها... اعتبرها نوعًا من أنواع تكفير الذنوب أو الشفقة...

ثم اعتدل في جلسته وأكمل:

- لكن عندما عرفت من هو خطيبها، وكيف أنه شاب محترم، تحلم به كل فتاة، وأفضل مني كثيرًا... إضافة إلى مشاكلي مع زوجتي... ذهبت على الفور

كي أنهي علاقتي بها...

ولأول مرة، عبر وجه (محمد) عن شيء ما، وهو ارتفاع حاجبيه في سخرية، فأكمل (أيمن) برجاء:

- أنت رجل عاقل... تعرف كيف تزن الأمور، وتراها في موضعها... أنت من داخلك تعرف أنه لا ذنب لي...

وأكمل كأنما معه إثبات براءة:

- حتى الآن... لقد كلمتني منذ قليل ولم أرد عليها؛ احتراما مني لما قلته لها اليوم، عن انتهاء علاقتنا...

وتابع وقد حمل صوته رجاء ما، وقد دوي صوت أذان الفجر خلفه:

- والله العظيم... وهذا الاذان يشهد علي... خطر في بالي أن أخبرك أن تتركها... فشخص محترم مثلك لا يستحقها... المرأة التي لا تراعي حرمة بيتها أو زوجها أو خطيبها... لا تستحق المعاشرة... لكني قلت لا داعي... وكفاني ما ألحقته بها من ألم.

وابتسم ابتسامة بريئة مكملاً:

- لكني سعيد أنك عرفت... وسعيد أنك جئت... كي تعرف الحقيقة... وتري أنها لا تحترمك... وأنني بريء من ذنبها معك..

ونظر إلى الأرض في خجل تمثيلي بارع:

- ثم هناك شيء ما... لا بد أن تعرفه عنها...و والله العظيم لم أخبره لأحد الا انت فقط...لأنك لابد أن تعرفه..

وأكمل بهدوء:

- لم تكن علاقتنا بريئة جدًا قبل الخطوبة...

ولأول مرة، قال (محمد) بوجه جامد وهدوء غريب:

- إلى أي مدى وصلت علاقتكما قبل الخطوبة؟

شجعه هدوء (محمد) على قول ما يريد:

- ذهبنا للسينما معًا وحدنا...وأنت تعرف ما يحدث هناك...

قال (محمد) بصرامة هذه المرة:

– إلى أي مدى وصلت؟؟!

عاد خوف (أيمن) إليه، فقال بتردد:

– قبلات... وأحضان...

قال (محمد) بصرامته المخيفة:

– فقط؟!

نظر للأرض، وقد أدرك غباء ما قاله الآن فقط. ولكن خوفه جعله يقول:

– ولمستها...في أماكن معينة...

نهض (محمد) فجأة، مما جعل (أيمن) ينتفض ويحمي وجهه لا إراديًا، ثم نظر لـ (محمد) ويده الممدودة كي يسلم عليه، فنهض (أيمن) وسلم عليه مبتسمًا في تردد، في حين اتجه (محمد) للباب في هدوء، ليفتحه ويخرج دون كلمة واحدة...

زفر (أيمن) في ارتياح شديد، وأخرج هاتفه من جيبه باسمًا عندما...

<< أيها الحقير... أيها الكاذب... أنت حيوان... حيوااااااااااان...>>

سمع صوتها قبل حتى أن يضعه على أذنه، وأدرك أنه نسي تمامًا أن يغلق الهاتف قبل أن يضعه في صدره...

<<أيها الكاذب... يا ابن الكلب.. كيف تفـ.....>>

ضغط زر إنهاء المكالمة في هدوء ولا مبالاة...

وارتياح...

* * * * *

<<كيف تعرفين أن تريحيني هكذا يا (رامي)؟..>>

قالها (العاصي) مبتسما لـ (ريم) في الهاتف، وعندما لم ترد قال:

– أتعلمين شيئًا؟... لولا أنك (رامي) صديقي العزيز... كنت أحببتك...

صمتت لحظات، ثم تساءلت في هدوء:

– أخبرني يا (عاصي)... لماذا لا تنظر لي كفتاة؟

تنهد في هدوء، ثم قال مبتسمًا:

– هناك قناع ما، يضعه أي ولد أمام أي فتاة... وهو قناع مرهق جدًا لو أردت رأيي... لا بد أن نعترف بحقيقة ما... لقد خلقنا الله مخلوقات جنسية... وخلق الأناث كائنات عاطفية... إننا نتأثر جنسيًا بكل شيء... وأنتم أقل منا بكثير في هذا الموضوع... وهذا لحكمة إلهية، إنكم لو تتأثرون بنفس درجتنا، لكنا مثل الكلاب والقطط في الشوارع دون قيود...

قالت في هدوء:

– من قال أننا لا نتأثر... إننا مثلكم تمامًا...وهناك أيام تمر علينا سوداء.. ندور في الشقة لا نعرف ماذا نفعل... لكننا أرقى من أن نقول ذلك...

ضحك ضحكة صافية وقال:

– أنا لم أقل أنكم تماثيل من الصخر... لكني أقول إننا أكثر منكم بكثير... بالله عليك إننا ننهض كل يوم صباحا مثارين دون أي داع... لهذا عندما يدخل أي شخص غرفة ولد استيقظ لتوه... تجدينه نام على بطنه فورًا...

ضحكت هذه المرة، فأكمل:

– نعود لموضوعنا... لا يعرف أي رجل فتاة ما... إلا بدافع يبدأ أو ينتهي بالجنس... حتى لو كان حبًا أفلاطونيًا بريئًا...لا بد أن تجدي الرجل قد تأمل في الفتاة.. صدرها أو مؤخرتها مرة أو مرتين... حتى لو أنكر هذا... فهذه طبيعة فينا لا نستطيع التحكم فيها....

قالت ضاحكة:

– من الآخر... أنتم حيوانات بشرية...

قال بهدوء:

– حكم قاسٍ نوعًا... لكنه قريب من الحقيقة... وأنتم مثلنا... لكن انظري إلى أي قطة في الشارع... تصدعنا بموائها طوال الليل في موسم التزاوج...

وعندما يأتي الذكر الذي تنادي عليه طوال الوقت، تجدها تقاومه وتبتعد عنه متأففة... وأحيانًا تضربه، ثم تستسلم في النهاية.... هكذا أنتم بالضبط...

وأكمل بعد ضحكتها:

– لهذا لا أريد أن أنظر إليك كأنثى... أنت أعظم من هذا في نظري... أنا أرتاح معك وأثق فيك وأخبرك ما أريد دون خوف أو خجل... أنت أقرب شخص لي في حياتي... فكيف أحولك إلى أنثى... أنظر لك كذكر؟

قالت باسمة:

– أتعني أنك لم تنظر لي أبدًا بتلك النظرة؟

قال باسمًا بصراحته المعهودة معها:

– والحق يقال... أنت تملكين صدرًا رائعًا...

صاحت فيه بخجل:

– اخرس يا حيوان...

ضحك قائلا:

– أنت تعرفينني... فلا تسألي سؤالاً لا تحبين أن تسمعي إجابته... لأني سأقولها...

قالت بضحكتها:

– لعنك الله...

* * * * *

رغم كثرة التعليقات التي وصلت من أصدقائه، لم يبتسم (إسلام الحسيني) أو حتى يشعر بالسعادة...

ثمانية وعشرون تعليقًا حتى الآن...

وكلهم تعجبهم القصة القصيرة...

هناك بالطبع فتيات تعترض، تخبره أنه لا داعي لتلك الكلمات، وأنه كاتب

جيد دون تلك الأشياء...

لو كانت على حق... إذن لماذا لم تعلق – أو ربما لم تقرأ – مقالة "أنا إن قدر الإله مماتي"؟؟..

أكثر التعليقات التي أثرت فيه تعليق (باسم)...

لم يقل إنها جميلة... ولم يقل إنها سيئة... لكنه عبّر عن إحباطه...

إحباطه في شخص (إسلام) الذي لجأ إلى تلك الوسيلة لجذب الانتباه...

تذكر في ابتسامة ساخرة، هؤلاء الناس الذين يدخلون على موقع (يوتيوب) أو أي موقع آخر... يفتح فيلما عنوانه (جنس... إثارة... صدر كبير)... ثم يترك تعليقا يقول << أستغفر الله>> وآية قرآنية... ويلوم من وضع تلك اللقطة لفتاة محجبة تقبل شابًا في فمه...

لماذا فتحت الفيلم أصلاً – بل وشاهدته – أيضًا؟

أي تناقض هذا؟..

وابتسم في هدوء...

* * * * *

رفع (ياسين) رأسه الى السماء في ملل، وقد بدأ ضوء النهار يعلن عن نفسه، في حين قالت (سارة) ناظرة إليه في قلق:

– (عادل) تأخر....

ابتسم (ياسين) ابتسامة ساخرة ولم يعلق، في حين نظرت (سارة) إلى ساعتها ثم هتفت:

– اللعنة... لقد توقفت الساعة...

نظر (ياسين) إلى ساعته وقال:

– إنها الخامسة إلا عشر دقائق...

نظرت إلى ساعتها بضيق وهي تهزها وتدق عليها بإصبعها؛ عساها تعمل

ثانية، لكن محاولتها باءت بالفشل، فزفرت في ضيق وقالت:

– (عادل) هذا عينه جبارة... أعجبته الساعة، فتوقفت على الفور...

رن جرس هاتفها المحمول، فأخرجته من حقيبتها لتجد رقمًا غير مسجل فردت قائلة:

– ألو...

– (سارة أحمد محمد)؟

صوت غريب قالها فشعرت بتوتر وهي تقول:

– أنا هي... ماذا هناك؟

– إننا مستشفى (...) في العاشر من رمضان...

– ماذا هناك؟؟؟

قالتها بصوت أكثر توترًا، جعل (ياسين) ينظر إليها متسائلاً، في حين قال الصوت:

– أنا الدكتور (أشرف)... البقاء لله... والدك تو....

قاطعته صرختها المفزوعة، وقد وقع الهاتف من يدها وصرخت:

– أبي....

وانهارت في البكاء وهي تجلس على الأرض وتسند ظهرها إلى العربة، في حين وقف (ياسين) مذهولاً لا يدري ما يفعل، فجلس على الأرض إلى جانبها وربت على كتفها قائلاً:

– اهدئي... لا حول ولا قوة إلا بالله... أرجوك...

مالت برأسها وهي تبكي لتسند على كتفه، فلم يشعر بنفسه إلا وهو يحيطها بذراعيه، في حين ظلت تبكي وقد دفنت رأسها في صدره...

واستمر بكاؤها طويلاً...

وصوت الرجل في الهاتف يكمل...

– آنسة (سارة)... هل تسمعينني...؟

ولا حياة لمن تنادي،

سادس الساعات

الخامسة صباحًا

نظرت (أمنية) إلى ما كتبته في فخر شديد...

شعرت داخلها برضا وسلام داخلي جعلها تبتسم في سعادة...

هناك أمل ما...

رغم كل ما كانت تشعر به من يأس من كل أصدقائها، ونعتها لهم بالسلبية، وغضبها من نفسها أنها كانت مثلهم بنفس السلبية، إلا أنها عندما تحركت وجدت الكل يتحرك معها...

هي لا تعلم لماذا انجرفت، ونشرت مقالات تنتقد الحكومة وتلعن سلسفيلها، لكن ذلك الحماس، وتلك الطاقة للتغيير، جعلتها تريد تغيير كل شيء...

تقول كل ما كتمته في نفسها طوال تلك الأعوام من الصمت...

ظلت تنظر إلى ما نشرته فترة طويلة، وقد شردت قليلا، عندما دوي صوت جرس هاتفها فنظرت للرقم في تعجب، ثم ردت لتجد عمها:

- (أمنية) حبيبة قلبي... ما أحوالك؟

صوته المرح جعلها تعقد حاجبيها في ضيق....

* * * * *

<< لا أستطيع... >>

قالتها (يسرا) في توتر، وقد انقبضت كل عضلاتها من توترها، وبدأت تشعر بضيق خفي يغزو صدرها...

تنهدت تنهيدة حارة وقالت ثانية:

- لا أستطيع...

- هذا لأنك لست مسترخية بما يكفي...

قالها الصوت في هدوء شديد، فأخرجت يدها من بين قدميها وقالت:

- هذه ثاني محاولة تفشل...

قال الصوت بهدوئه:

- أمامنا اليوم بأكمله...

قالت وذلك الضيق يغزوها:

- بصراحة... لا أريد تكرار المحاولة...

صمت هذه المرة ولم يرد، فأكملت:

- لقد وافقت في البداية ظنًا مني أنني أتمرد... قلت لنفسي لأشعر بالجنون والحرية لأول مرة في حياتي...

وزفرت في عنف مكملة:

- لكن عندما بدأنا... شعرت أنني عاهرة... نظرت إلى نفسي من أعلى، لأجد فتاة رخيصة تعبث في نفسها...

قال لها في تفهم:

- لهذا لم تستطيعي... لا أحد يستطيع أن يفعل هذا عندما ينظر إلى نفسه من أعلى...

قالت مبتسمة، في محاولة منها لاستعادة مرحها وراحتها:

- كيف تنظر إلى نفسك أنت إذن؟!

صمت فترة طويلة هذه المرة، ثم قال:

- أنا لا أراني...

صمتت، فاستعاد صوته هدوءه وهو يقول:

- لهذا يمكنني فعل أي شيء... لقد قتلت ضميري منذ فترة طويلة...

شعرت بفضول غريب، فسألته:

- من أنت؟!

صمت هو لحظات طالت، جعلها تقول مغيرة السؤال:

- لا داعي لذلك السؤال...

ثم صمتت مفكرة لحظات لتسأل:

- لماذا أنت؟

ورغم سؤالها غير المفهوم... إلا أنه فهمها...

قال بصوت لم تستطع أن تفهم ما به:

- أنا لا أعرف لماذا أنا... لا أعرف من أنا... ولا أعرف ماذا أريد... ولا أريد أن أعرف كل هذا...

صمتت في محاولة للفهم، فأكمل:

- لماذا أنا... لا أدري... كل من عرفته يعرف تمامًا لماذا يعيش... لمن يستيقظ ولمن يعمل وما هو الهدف من وجوده... يسعى لتحقيق شيء ما... يجد ما يحلم به ويرغب في تحقيقه... إذا كان زواجًا أو منصبًا أو حتى عائلة كريمة... لكني لا أعيش من أجل أي شيء من تلك الأشياء... ولدت وأنا أحاول أن أفهم فلم أستطع حتى الآن.. جميع من حولي أخبرني أنني سأعيش لكن بلا داعي... وهذا ما حدث فعلاً...

دارت في رأسها عشرات التساؤلات لكنه أكمل:

- من أنا؟... خمسة وثلاثون عامًا أحاول معرفة إجابة هذا السؤال ولم أعرف... ظننت نفسي محترمًا ومتدينًا ولن أفعل ما يغضب ربي أبدًا... حتى لاحت أول فرصة لفتاة تعرض نفسها عليّ... فاستسلمت ونمت معها... فعرفت أنني لست كما أظن... قلت إن هذا آخر شيء سأفعله خطأ... لأجد أنني شربت سجائر... وتتطور الأمر إلى الحشيش... ثم تطور ليصبح خمرًا...

وظل طعم الخمر المر يذكّرني بما كنت، وماذا أصبحت... وكيف ساكون...

لو سألتك السؤال نفسه وعرفت الرد فأنت كاذبة... إن الإنسان عبارة عن صلصال تشكله الظروف والحياة كما تريد... أنت فتاة صغيرة داخلها شعلة من النار... تحترق في صمت... لو أخبرك أحد في حياتك أن هناك من سيكلمك ويعرض عليك مكالمة جنسية وأنك ستوافقين... هل تصدقيه؟؟؟

قالت بصوت خافت:

– لا بالطبع...

– إذن كيف تجزمين أنك تعرفين نفسك؟... كلنا نضحك على أنفسنا كي تمضي بنا الأيام دون ألم... كلنا كاذبون...

وصمت لحظات ثم أكمل:

– يمكنك اعتباري شخصًا توقف عن الكذب منذ فترة... فأصبح ميتًا من كثرة ما شعر بالألم...

صمتت وهي لا تدري ما تقول...

ضرب كلامه بكيانها عرض الحائط....

شعرت بثورة داخلها لا تدري مصدرها....

أدركت أنها – مثلما يقول– كاذبة....

تكذب على نفسها وعلى كل من يعرفها، بشخصية ليست داخلها، لكن بكيان أرادت أن يراها الناس به...

طال صمتها مع صمته عندما...

<< هيا...>>

قالتها بحسم فردّ متسائلاً:

– ماذا؟!

قالت بصوت قوي:

– المحاولة الثالثة...

صمت لحظات طالت، ثم قال بهدوء:

– لا داعي...

قالت بحماس مفاجئ:

– لماذا؟

قال بهدوء:

– لا أريد أن أقتلك...

صمتت لحظات، ثم قالت شاردة:

– من قال إنك تقتلني؟!

وأكملت:

– إنك الآن تحييني...

وعندما صمت، قالت له:

– أنا مستعدة.... هل أبدأ وحدي؟؟؟!

* * * * *

هدأ بكاء (سارة) تمامًا بعد فترة طويلة، لكنها ظلت على وضعها، جالسة على الأرض ورأسها على صدر (ياسين) الذي يضع ذراعه على كتفها...

وعندما طالت جلستها لم يتحرك وهو يظن أنها نامت، لكن عندما بدأت العربات في الظهور، ثم بدأ بعضها في إطلاق النفير عند رؤيتهم، قال بصوت خافت:

– (سارة)...

رفعت رأسها إليه بعين حمراء تمامًا، فقال بهدوء:

– هيا نحاول مرة أخيرة... عسى أن تقف عربة لنا...

أومأت برأسها موافقة، ونهضا معًا، ليقف (ياسين) محاولاً إيقاف العربات في حماس كعادته، ينظر إليها بين الحين والحين، وهي جالسة داخل العربة تنظر للا شيء، ورغم أن الموقف لا يحتمل إلا أنه شرد رغمًا عنه وهو يتأملها...

هل أحبها؟؟..

هل لذلك الصراخ الذي يموج به قلبه لها أي معنى؟!

هل يمكن أن يشعر ما يشعر به، فقط في بضع ساعات؟!!

أي خيال هذا؟!!

قاطعه صوت نفير عربة مسرعة تقترب منه، فنظرت له (سارة) مفزوعة، وهو يحاول أن يرجع للخلف بسرعة كي لا ترتطم به...

لكنه لم يكن سريعًا بما يكفي...

اصطدم جانب العربة بقدمه ليجد نفسه يطير لحظات، ثم يقع مرتطمًا بالأرض في عنف ويتدحرج قليلاً، ثم تهمد حركته...

صرخت (سارة) وهي تفتح باب العربة وتركض نحوه، وجلست أرضًا إلى جانبه وصاحت برعبها:

- (ياسين)... (ياسين)....

تساند عليها وقد بدا الألم واضحًا في قسماته، في حين توقفت العربة التي ارتطمت به، وخرج منها رجل في العقد الخامس، ومعه زوجته، ليذهبا نحوهما مذعورين، والرجل يقول:

- هل حدث لك شيء يا بني؟!

نهض (ياسين) مستندًا إلى (سارة)، فأكمل الرجل بتوتر:

- لقد كنت تقف في مكان بعيد عن الرصيف... وكانت هناك عربة كبيرة أمامي، وعندما اتجهت جانبها كي أسبقها وجدتك أمامي، فلم أستطع أن...

قاطعه (ياسين) بابتسامة:

- لا تقلق يا والدي... إنه خطئي أنا....

تنهد الرجل وزوجته في ارتياح، ثم قال الرجل ثانية:

- هل أصبت؟؟؟ هل أنقلك إلى أي مستشفى؟؟؟

صمت (ياسين) لحظة، ثم قال:

- هناك شيء واحد تستطيع أن تفعله لي...

قال له الرجل بسرعة:

- تأمرني...

قال (ياسين) وهو يشير إلى (سارة):

- تلك الفتاة تريد الذهاب إلى مستشفى في العاشر من رمضان... توفي والدها الآن... وقد نفد الوقود منا...

ونظر للعربة ليجد فتاتين تجلسان على المقعد الخلفي تنظران إليه فتبسم، فقال مبتسمًا:

- وكما أرى... لا يوجد سوى مكان واحد فقط في عربتك... هل يمكنك أن توصلها؟!

رفع حاجبا الرجل في تأثر وقال:

- بالطبع بالطبع...

ونظر إلى (سارة) قائلاً بأسف:

- البقاء لله يا بنيتي...

ظهرت دموع (سارة) ثانية، فدفعها (ياسين) برفق قائلاً:

- هيا يا (سارة)...

نظرت إليه لحظات متأثرة، ثم قالت:

- لا أريد أن أتركك... وأنت تفعل كل هذا من أجلي...

ابتسم ابتسامة مشجعة ثم قال محاولاً إخفاء ألمه:

- سأظل مع العربة... حتى تأتي عربة أخرى وأملأها بالوقود، ثم آتيكِ بها... اتفقنا؟

نظرت إليه وإلى عينه، وقالت بدموعها:

- لا أعرف ما أقول... أشكرك تبدو قليلة جدًا...

ابتسم ثانية ونظر إلى الرجل قائلاً:

- أرجوك... اهتم بها... وأوصلها سالمة...

ابتسم الرجل في هدوء، في حين ذهبت (سارة) معهم ببطء وهي تنظر إليه

حتى ركبت العربة، لتحييها الفتاتان، وقالت إحداهما وهم يتحركون:

- إنه ينزف...

التفتت (سارة) مفزوعة نحو (ياسين) الذي ظهرت بقعة حمراء كبيرة على أسفل بنطاله والعربة تبتعد...

تاركة اياه...

* * * * *

<< ماذا تريد يا عمي...؟>>

قالتها (أمنية) في تعجب، وقد شعرت ببعض القلق، فقال عمها في هدوء:

- ما هذا الذي تفعلينه؟

لم تستوعب لحظتها ماذا يقصد، فقالت متسائلة:

- ماذا هناك؟

قال محاولا أن يبدو هادئا:

- أنت تعلمين ما هو عملي... أليس كذلك؟

ابتسمت في حيرة وقالت باسمة:

- لا أعلم بالضبط... كل ما أعلمه أنك في منصب كبير في الداخلية...

صمت لحظات مفكرًا، ثم قال:

- وماذا أيضًا؟

- وأنك قد ترشح نفسك في الانتخابات....

- هذا هراء... لا يوجد أحد بالداخلية يرشح نفسه... إنه القانون...

لم تفهم ماذا يريد، فظلت على صمتها، فقال وقد بدأت العصبية تتسلل إلى صوته:

- قصدت بسؤالي... أنني أنا من أرعاكم... والدك بصحة سيئة، وداخل مستشفى الآن، من أكبر مستشفيات البلد، وكل شيء له مجانًا... مصاريف

جامعتك كانت مجانًا... رحلة أبيك وأمك إلى الحج جاءت من عندي.. ثم والأفضل من هذا... أنكم في حياتكم كلها تمشون باسمي...لا تعرفون معنى غرامة أو مخالفة... ابن عمتك الضائع الذي مات أحد أصدقائه من جرعة زائدة من المخدرات، لم يزر القسم، ولم يذكر اسمه في المحاضر الرسمية.. كل هذا لأنكم من عائلة الزيات...

لم تفهم ماذا يريد من كل هذا الكلام، فقالت باسمة:

- وأنا لم أنكر هذا لحظة يا عمي... ولك جزيل الشكر والتقدير..

قال محاولاً الهدوء:

- أنا أفعل كل هذا عن طيب خاطر... إنكم أبنائي وهم إخوتي... لا أحتاج إلى كلمة شكر منك...

- إذن ماذا تريد؟؟

قالتها هادئة، لتفاجأ بانفجاره:

- أريد التقدير...أريد أن أشاهد في تصرفاتكم احترامًا لما أفعله... لا أريد أن أستيقظ الساعة الخامسة صباحًا على تليفون من من يعملون تحتي؛ ليخبروني أن هناك مكالمة جاءتهم بخصوص ابنة أخي... أقول لهم ماذا فعلت؟.. فيردون: نشرت في ست ساعات خمسًا وستين مقالة، تدعو فيهم للتظاهر وإثارة الشغب وتلعن الحكومة ووزارتها في ثلاثين مقالة منها... وتدعو للتطرف الديني في ثلاثين أخرى...

بهتت (أمنية) من الأرقام، هي نفسها لم تصدق أنها نشرت كل هذا، لكنها قالت مدافعة عن نفسها:

- انني لم أدعو للتظاهر وإثارة الشغب... كل ما فعلته هو أنني أريد اغلاق صفحة (الله) على الـ(facebook) ليس أكثر...

قال لها، وقد بدا أنه يقرأ من شيء ما:

- في المقالة السادسة عشرة من ملفك الشخصي... توجد مقالة للكاتب(...)... << لابد من الثورة... كل تلك السلبية والطرمخة المصرية لا

تجعلنا نتحرك خطوة إلى الأمام... خمسة وعشرون عامًا من الذل والمهانة... لا حل لنا سوى الثورة..>>... المقالة المشهورة <<إنك لميت وإننا لميتون>>... قطعة من كتاب ثورة الشعب... كاتب صغير في أحد صحف المعارضة السخيفة... << خازوق الحكومة... وثمانين مليون خرم... >>... كيف لفتاة محترمة مثلك أصلاً أن تنشر هذا المقال؟!!... هل أكمل؟؟

شعرت بارتباك شديد من ثورته، فقالت محاولة تهدئته:

– إنها مقالات كلها منشورة في الصحف... وعلى الإنترنت... كل ما فعلته أنني نقلتهم...

ثم صمتت لحظة وقالت بعصبية هذه المرة:

– وهل في رغبتي لإغلاق صفحة كافرة.. تطرف ديني؟؟؟

قال بالعصبية نفسها وهو يقرأ:

– شعار الإخوان... (الإسلام هو الحل)... (ضياع الدين في عصر الإلحاد)... (الحكم الإسلامي والشرع)... وآخر مقال هذا فيه أن حكم الإسلام فيما تفعله الحكومة ومن فيها هو الإعدام، أو قطع أيدي كل من فيها... هل أكمل أيضًا؟

صاحت في انفعال:

– هل تراقبني؟

صرخ فيها:

– أنا لا أراقب أحد...لكننا نملك أسماء معينة تحتها خطوط حمراء... ببلاهتك هذه انضممت بجدارة لتلك القائمة...

قالت بعصبية:

– ولماذا تتركون تلك الصفحة... التي فيها من يدعي أنه الله... وتتركون من فيها...

حاول أن يهدأ عندما وجدها منفعلة:

– ما لنا نحن في مجموعة حمقى ملحدين؟؟؟... هل تظنين أن تلك الصفحة هي الوحيدة؟... هناك مئات الصفحات مثلها... بل هناك موقع مخصوص

يسخر من القرآن... يقلدون آياته ويأتون بقارئ يقرأ مثلنا تمامًا... ثم يضعوا شتائم سافلة و"أبيحة" في الآيات... وهناك موقع يسخر من الرسول وعادات المسلمين... ومئات غيرهم...

شعرت بالتقزز مما سمعت فقالت:

– أستغفر الله العظيم...

ثم قالت بتصميم:

ا– إن ما قلته يدفعني لإكمال ما أفعله... فكما قال الرسول عليه الصلاة والسلام... << من رأى منكم منكرًا...>>

قاطعها بسرعة قائلاً:

– بقلبه... هناك (بقلبه)... وهذا ما أريدك أن تفعليه...

هزت رأسها في عنف قائلة:

– آسفة يا عمي... لا أستطيع...

صمت هذه المرة فترة طويلة، ثم قال بصوت هادئ:

– لك ما تريدين...

وأكمل:

– لكنك ابنتي... وأنا – مثل أي أب – لن أسمح لأحد أولادي أن يؤذي نفسه... حتى لو كان هذا رغمًا عنه...

صمتت ولم ترد، في حين أغلق الخط... في عنف...

* * * * *

نظر (أحمد العاصي) إلى ساعته، ثم قال مندهشًا:

– هل الساعة الخامسة والنصف صباحًا فعلاً؟؟؟

قالت (ريم) باسمة:

– أجل...

قال في تعجب:

– لا أصدق أننا نتحدث منذ ساعتين ونصف...

قالت باسمة:

– اللحظات الحلوة تمضي بسرعة...

ثم استطردت في مرح:

– ما هو أكثر المواقف إحراجًا مر عليك...؟

ضحك في سعادة لا يعرف مصدرها، ثم قال باسمًا:

– حسنا يا (رامي)... كنت في المستشفى... أنت تعلمين أنني ذهبت للمستشفى في عملية (ناصور)... المهم.. كنت أتحدث مع (صافي)... الفتاة التي ارتبطتُ بها وتركتها بعد شهرين...

قالت بغيظ:

– أعرفها...

أكمل دون أن يلاحظ:

– كانت صاروووووووخًا... كلما أراها أو أسمعها أشعر أنني ثور في موسم التزاوج... تحدثنا ليلتها وكانت مكالمة ساخنة قليلاً... لأغلق معها وأنا أموت.. لذا قلت أريح نفسي قليلاً...

قالت بتقزز:

– لا داعي للتفاصيل...

ابتسم ابتسامة مرحة، وقال:

– المهم... لم تمر خمس دقائق حتى دخلت الممرضة فجأة ظنًا منها أنني نائم في هذا الوقت المتأخر... ورأت كل شيء...

أفلتت منها ضحكة رغمًا عنها، فضحك هو الآخر وأكمل:

– وقفت المسكينة ذاهلة لحظات... ثم أدارت نفسها وخرجت لتغلق الباب

وراءها...

تشاركا ضحكة طويلة وقالت:

– مجنون... في المستشفى؟؟؟؟

قال:

– دعك مني... ما هي أكثر المواقف إحراجًا لك؟!

تنحنحت في إحراج وقالت:

– كنت في محاضرة... ولا أدري لماذا، أو ماذا أكلت، لكن بطني كانت ستنفجر... وكنت أحاول إمساك نفسي لأنني لا أحب حمامات الكلية... حتى وصلت لدرجة لا تحتمل... فرفعت يدي لأستأذن الدكتور كي أذهب، فسمح لي... نهضت مسرعة فأفلتت مني...

لم تدر كيف تقولها فقال (عاصي) باسمًا:

– (فركوكة)... أمي تطلق عليها (فركوكة)...

ضحكت في مرح وقالت:

– حسنا... أفلتت مني (فركوكة)... المشكلة الوحيدة أن صوتها كان أعلى مما كنت أتخيل... وقد كان المدرج كله صامتًا لسماع الدكتور...

انفجر (عاصي) بالضحك، فضحكت معه قائلة:

– كان هذا رد فعل الناس هناك أيضًا...

ودوت ضحكاتهم تملأ الدنيا..

انهارت (أمل) في البكاء...

في حياتها، لم تظن أبدًا أنها تملك هذا القدر من الدموع...

كم هو حقير...

لم تتخيل في حياتها، أن تصل الوضاعة بإنسان إلى هذه الدرجة...

إنها لم تفعل شيئًا معه...

لم تقربه حتى...

كانت تعشقه، وكانت لا تتخيل نفسها إلا زوجته فلم تفعل شيئًا معه...

كيف يفعل هذا بها...

وللمرة العشرين بعد المائة، تكلم (محمد) ولا يرد عليها...

كيف لم يضربه؟!...

كيف لم يثر في وجهه...؟!!

هل صدّقه؟!...

كيف يصدقه؟!...

أرجوك رد يا (محمد)...

أنا أعرف الآن كم أحبك...

أعرف كم كنت رجلاً... وكيف كنت حمقاء وعمياء بحبي لـ (أيمن) الكلب...

تصاعدت دقات خفيفة على الباب، فقالت دون أن تهتم حتى بمسح دموعها:

- ادخل...

فتح (مصطفى) أخوها الباب في هدوء...

وعندما رأته، ركضت إليه وارتمت في صدره تبكي بحرارة...

احتواها في حنان، فمهما كان خطؤها فهي أخته الصغرى التي تربى على حمايتها...

قال لها بهدوء:

- ماذا حدث؟!

نظرت إلى عينيه الدافئتين لحظات، ثم انطلقت تروي...

كل شيء...

* * * * *

ألم رهيب كان في ساق (ياسين)، لكنه لم يبالِ به...

ظل جالسا داخل السيارة منذ أن انصرفت (سارة) مع تلك العربة...

بقعة دم كبيرة على سرواله، جعلت السروال يلتصق به أكثر ويزيده ألمًا على ألم...

لكنه - وقد عجب من نفسه لذلك - لم يكن يفكر إلا في (سارة)...

انحصر كل تفكيره في تلك اللحظة التي بكت فيها (سارة) على صدره...

خفق قلبه، وشعر لحظتها أنها له...

شعر أن يديه خلقتا كي تحتوياها...

على مقاسها...

في حياته كلها - وقد ارتبط ثلاث مرات من قبل - لم يشعر بذلك الشعور...

لكنها تشرب سجائر... وتلبس ملابس لا تليق بشرقيته...

لكنها له...

ظل على حيرته فترة طويلة، حتى دوى نفير تلك السيارة إلى جانبه...

التفت لتلك العربة التي وقفت بجانبه، و(عادل) يخرج منها مبتسما، وفي يده (جركن) كبير ممتلئ بالبنزين، ويقف جانب نافذة العربة قائلاً بابتسامة:

- وصلت النجدة...

نظر (ياسين) إليه متسائلاً وقال:

- لم أكن أتوقع أنك ستعود أبدًا...

قال (عادل) وقد بدا عليه الأسف:

- كان سوء تفاهم كبير... لعنة الله على الأصدقاء... يخبرونك بمغامراتهم وما فعلوه من سفالة، حتى تظن أن نصف نسائنا عاهرات، والنصف الآخر يستسلم دون نقود...!

وأكمل عندما وجد ابتسامة (ياسين):

- أخبرني أحد أصدقائي أن موقفًا مشابهًا حدث معه، عربة معطلة، وفتاة ترتدي ملابس مكشوفة معها شاب - ولا مؤاخذة - ليس برجل... ركب معها ساعة وفعل ما فعل وأعادها ثانية بخمسين جنيهًا... لذا عندما رأيتكم ظننت...

ابتسم (ياسين) وهو يفتح باب عربته، ويخرج منها بصعوبة، ثم يعرج حتى وقف أمامه، فقال (عادل) بدهشة:

– ما تلك الدماء؟؟... وأين الفتاة؟!

ابتسم (ياسين) ساخرًا وهو يقول:

– ذهبت مع زبون آخر...

ارتسمت أعتى علامات البلاهة على وجه (عادل).. فضحك (ياسين) ضحكة خفيفة، ثم قال في هدوء:

– توفي والدها... فأوقفنا عربة كي تذهب بها إلى المستشفى....

ارتفع حاجبا (عادل) وقال في أسف:

– البقاء لله...

ثم تساءل متعجبًا للمرة الثانية:

– ولماذا الدماء؟!!

قال (ياسين) ساخرًا ربما من كثرة تعبه:

– لقد تحمست زيادة عن اللزوم... فقفزت أمام واحدة...

ارتفع حاجبا (عادل) في دهشة، في حين أكمل (ياسين) بنفس السخرية:

– الآن لا توجد شهامة إطلاقًا... كل شخص ينظر أمامه ولا يفكر في أحد إلا من في حياته وأهل بيته... مثلاً في موقفنا هذا لن يقف إلا ثلاثًا...

وأكمل عندما وجد نظرة (عادل) المتسائلة:

– شخص هائج مثلك... نصاب يريد كسب نقود ما بتظاهره بإصلاح العربة... والشرطة... ظنًا منها أننا نرتكب (فعلاً فاضحًا في الطريق العام)...

أفلتت من (عادل) ضحكة وقال:

– هل وصلنا إلى هذه الدرجة؟؟؟

نظر إليه (ياسين) نظرة شاردة وقال:

– هذه هي مصر يا عزة...

– من عزة هذه...؟؟

– لا تبال...

قالها وهو يخرج الجركن، ويسلمه إلى (عادل) الذي أخذه منه باسمًا وقال:

– هل تقبلت اعتذاري الآن؟!

قال له (ياسين):

– يكفي أنك عدت... المهم... كم حساب البنزين؟!

اتجه (عادل) نحو عربته وقال باسمًا:

– لا عليك...

صاح فيه (ياسين):

– أين تذهب؟!

نظر له (عادل) متسائلاً، فقال (ياسين) في حرج:

– لا بد من شخص ليدفع العربة؛ لأنه عندما ينفد الوقود، لا تعمل بالأسلوب العادي... ولا بد من أن تدفعها و (تكارك) على الثاني....

ابتسم (عادل) وخلع جاكتة البدلة، واتجه إلى مؤخرة العربة، فقال له (ياسين) لأول مرة منذ عاد:

– أشكرك...

لم يرد (عادل) وهو يدفع العربة بقوة، حتى دارت...

قال لـ (ياسين) بهدوء:

– سلم لي على الفتاة... وقل لها البقاء لله...

وانطلقت العربة بـ (ياسين)...

في طريقها إلى (سارة)...

* * * * *

سؤال واحد فقط أعجب (إسلام الحسيني) في وسط التعليقات...

<< أشعر أن القصة لها بعد آخر... من هي عاهرتك...>>؟

أخيرًا... فهم شخص ما، ما يريد قوله...

وله هو فقط – رغم ستين تعليقًا لم يرد على أحد منهم – كتب:

– << إلى (عمرو)... لماذا لا تقرأها ثانية... وتعرف من هي...>>؟!

ما إن كتب التعليق ونشره، حتى وجد تعليقًا سخيفًا يظهر:

<< لماذا لا تعطيني رقم هاتفها... وسأسعدها بدلاً من الرجل العجوز..>>

وآخر أسخف منه:

<<سأخبرك من هي عاهرتك... إنها أمك.. أليس كذلك؟>>

لم ينتظر ومسح التعليق فورًا، ليجد آخر يظهر:

– لقد أصبحت عاهرة؛ لأنها لم تجد من يشبعها... قل لها (الدسوقي) هنا... هو سيفعل معها الواجب..>>

زفر في ضيق ليجد تعليقًا آخر:

<< كل مساء (مصرائيل) هكذا أصلاً... يا بلد الفساد والعهر.... نسيتم دينكم وتتشاركون اليهود مالكم... يا أمة ضحكت من جهلها الأمم... (فيفا لاجيري)...>>

وما إن ظهر هذا التعليق، حتى تحول كل المشاركين ضدّ هذا الشاب:

<< ما هذا يا (...) يا (..) أمك... يا من نام معكم الفرنسيون حتى أصبحتم لا تتحدثون غيرها...

وبعد ربع ساعة تجاوزت التعليقات رقم (200) في سهولة، وكلها شتائم متبادلة بين ذلك الشاب وأصدقاء (إسلام)...

وخرج الموضوع عن السيطرة...

سابع الساعات

السادسة صباحًا

ارتجف جسد (يسرا) وهي تتنهد تنهيدة طويلة، تعلو شفتيها ابتسامة سعادة غير طبيعية، وأخذت تنهج في بطء...

قال لها الصوت:

- ها... ما رأيك؟

ضحكت في سعادة، ثم قالت مبتسمة:

- أروع شعور أحسسته في عمري...

ساد الصمت بينهما للحظات، ثم قالت:

- هل أعجبك الموضوع أنت أيضًا أم...؟!

قال لها بصوت تظهر فيه السعادة:

- من أروع تجارب حياتي...

قالت وهي تتثاءب، وتفرد جسدها باستمتاع:

- هل بعد ما فعلناه... يأتي إحساس ملحّ بدخول الحمام؟!

- بالطبع...

ضحكت وقالت:

- إذن هل تسمح لي بالذهاب إلى الحمام دقيقة ثم أعود؟!

صمت لحظات ثم قال:

- بالطبع...

تركت هاتفها ونهضت في نشاط كبير تكاد تركض من السعادة، دخلت الحمام واغتسلت بسرعة ثم نظرت لنفسها في المرآة...

كان وجهها قد تورد كعروس في ليلة زفافها، وتلك البسمة التي لا تريد أن تفارق شفتيها مما زادها جمالاً على جمال...

من كان يتخيل؟!..

في أبعد أحلامها، لم تتصور أن تكون بهذا الجنون... بهذه الحرية...

دون قناع ودون تقاليد. ودون خوف على صورتها أمام الناس، تتكلم، تضحك، تصرخ، تتأوه، تطير وتحلم...

تكون نفسها...

عادت مسرعة إلى الهاتف وقالت باسمة:

- عدنا...

وجدت ما يشبه النهنهة تصدر منه، فقالت متعجبة:

- هل تبكي؟

حاول أن يغير ما في صوته، لكنه فشل تمامًا:

- لا... أنا لا أفعل...

اعتدلت في جلستها وقالت:

- لماذا تبكي؟!

صمت تمامًا هذه المرة، وإن تعالت شهقاته، وصوت بكائه المكتوم، فقالت مهونة:

- لا.. لا تبكِ.. أرجوك..

وعندما لم تجد إجابة قالت في حنان:

تخيل أنني أحضنك الآن... ابكِ على كتفي...

زاد صوت بكائه، فصمتت تمامًا تقديرًا لمشاعره...

فقط كانت تهمس بين الحين والآخر:

- هون عليك... أرجوك...

وظل يبكي...

* * * * *

ظلت (أمنية) مترددة بعض الوقت حينما أغلق معها عمها الهاتف

نظرت إلى صورتها مع أبيها وامها، وتساءلت.. ما الخطأ الذي فعلته كي يغضب عمها إلى هذه الدرجة؟!

إنها لم تخطئ...

هل الدفاع عن حق ما خطأ؟!...

لم تقتنع، لذا فقد توجهت إلى جهازها في حزم، وبدأت تبحث عن مقالات جديدة تنشرها....

* * * * *

رغم أنه لم يذق طعم النوم الليلة كلها، إلا أنه بدأ في ارتداء ملابسه في نشاط...

كان الأتوبيس يأتي كل يوم في الساعة السابعة، إلا أن من ملل (أحمد السيد)، كان يرتدي ملابسه ويجهز قبلها بساعة كاملة... وفي لهفة...

ربما لأنها هناك...

هبط إلى الشارع، وأخرج سيجارة ليشعلها منتظرًا أن يذهب لها بعد ساعة...

* * * * *

قال (العاصي) لـ (ريم) في ابتسامة:

– هيا... لا بد أن أنام، سأذهب للعمل في المكتبة الثامنة صباحًا؛ أي بعد ساعتين فقط...

قالت (ريم) وهي لا تريد أن تغلق أبدًا:

– وهل ستستطيع الاستيقاظ بعد ساعتين فقط؟!

قال:

– لهذا أعتمد عليك يا (رامي)... كلميني حتى أستيقظ...

صاحت مازحة:

– طبعًا... جاريتك أنا حتى لا أفعل شيئًا في حياتي سوى الكلام معك وإيقاظك...

وأكملت مبتسمة:

– إن لي حياتي يا هذا... وأريد أن أنام كما أريد....

صمت ولم يرد فزفرت في استسلام:

– حسنا... يمكنك الاعتماد علي...

ضحك هذه المرة وقال:

– هذا هو العشم يا (رامي)

قالت كي تغيظه ليس أكثر:

– هيا... أغلقي يا (سوسن)...

ارتفع حاجباه وقال ساخرًا:

– (سوسن)... ألم تجدي اسم فتاة إلا (سوسن)؟!!

وعندما ضحكت أكمل بغرور:

– أنا لو كنت فتاة كان اسمي سيصبح (سونيا)...(تيتي)...(يارا)، وليس (سوسن) أبدًا...

ضحك بشدة، ثم ودعوا بعضهم بعضًا...

وأغلقوا المكالمة...

* * * * *

أوقف (ياسين) العربة أمام مستشفى العاشر من رمضان، وقد كانت القيادة بقدمه المصابة جحيمًا، لكنه تحامل، ومشى بأقصى سرعة تسمح بها قدمه المصابة ليدخل المستشفى سائلاً إحدى الممرضات:

– أين غرفة السيد (أحمد أبو لمونة)...؟

قالت الممرضة دون أن تجيبه:

– سيدي... أنت مصاب، هل تود أن تكشف؟!

قال بعصبية:

– إنها إصابة بسيطة، أين غرفته؟!

بهدوء قالت:

– غرفة (311)

ذهب مسرعًا، ليصعد الدور الثالث، ليجد الغرفة مميزة، دون أن يحتاج للسؤال عنها...

كان هناك مجموعة من الرجال ينظرون لأرض الممر في حزن، وقد جلس ثلاثة منهم يقرؤوا القرآن...

فذهب نحوهم لينظر إليه أحدهم قائلاً:

– هل أنت قريب له؟!

لم يجد (ياسين) ما يقول فقال كاذبًا:

– انه بمثابة أب لي... لقد تربيت على يده....

هز الرجل رأسه في أسف وقال:

– كان من أعظم الرجال... إنه مديري منذ ما يقرب من عشرين عامًا... لم أرى منه أي شيء سيئ... رحمه الله...

سأله (ياسين):

– ما سبب موته؟!

هز الرجل كتفيه وقال:

- أزمة قلبية شديدة، كان يقف معنا كالحصان، ثم فجأة... وقع وسطنا...

هز (ياسين) رأسه في أسف، وقال:

- هل يمكنني أن أراه؟!

قال الرجل:

- بالطبع... ابنته بالداخل منذ نصف الساعة، المسكينة... لا أم ولا عم ولا خال... والآن بلا أب أيضًا... لقد كان المرحوم كل شيء بالنسبة لها...

ودخل (ياسين) الغرفة، ووقف مبهوتًا...

كانت (سارة) جالسة على ركبتها، تمسك يد أبيها وتبكي عليها، بكاء صامتًا، لكن غزيرًا... كان أبوها ممددًا على السرير، وجهه ساكن تمامًا، لكنه مضيء... وكانت تبكيه...

تبكي الرجل الذي كان ظهرها وأبيها وأمها وعمادها...

اقترب منها، لكنها لم تشعر به...

ظلوا على هذا الوضع فترة طويلة، عندما دخل رجلٌ في العقد الخامس من العمر، يبدو عليه التأثر، وقال وهو يقترب من (سارة) ويربت على كتفيها في حنان:

- (سارة)... تماسكي...

نظرت إليه بعينين باكيتين، فأكمل:

- لا بد أن نأخذه لنغسله... لقد أنهيت تصاريح الدفن، ولا بد من تغسيله الآن، فإكرام الميت دفنه... هيا يا ابنتي...

سالت دموعها الصامتة أكثر، وهي تنهض في هدوء، وتقبل رأس والدها في هدوء، ثم تحتضنه في قوة، قبل أن تبتعد، وتترك مساحة للرجال الذين غطوه، ونقلوه على نقالة، وذهبوا به مرددين آيات قرآنية وأدعية، وأمسك ذلك الرجل مصحفًا وظل يقرأ وهو يمضي إلى جانبهم...

ولأول مرة، منذ أن دخل (ياسين) الغرفة، رفعت (سارة) عينيها إليه، وقالت

بهدوء:

- إنه ابن خال أبي...

علم أنها تتكلم عن الرجل، فتساءل بصوت خفيض:

- ألا يوجد لكم أقارب؟!

هزت رأسها نفيًا، وقالت:

- أبي مثلي، وحيد أبيه وأمه، ولدي خال واحد مسافر إلى السعودية منذ فترة طويلة...

لم يدرِ ما يقول، لكنها نظرت إليه، وقالت كأنما تريد أن تتكلم في أي شيء يلهيها قليلاً:

- كيف أتيت؟!!

روى لها باختصار، فهزت رأسها في هدوء وسالت دموعها ثانية...

* * * * *

ثورة من الشتائم انهالت على رأس ذلك الرجل الذي علق على مقال (إسلام)...

وواضح أن ذلك الشاب قد أتى بأصدقائه، فانطلقوا في مجموعة يسبون في مصر، وفي أهل مصر، ومعهم كانت سرعة (إسلام) في مسح التعليقات، كانت الرسائل والشتائم أسرع منه...

ودارت حرب الكلمات بين الأشقاء...

وصل الموضوع إلى (جمال عبد الناصر)، والنشيد الوطني للجزائر من تلحين (محمد فوزي)...

ماضٍ صنعه اخوه بمحبة، ليهدمه شعب كامل بعدهم...

حتى في السجود...

وضع أحدهم صورة للمنتخب المصري وهو ساجد، وتعليق حقير:

"المؤخرات المصرية تنتظر الخازوق الجزائري"

ليضع مصري آخر تعليق:

"بلد المليون شاذ"

ونظر (إسلام) إلى كل ذلك في صمت...

لو كان كل هذا الكره والبغضاء لليهود أو المحتلين، لكان الإسرائيليون قد انتهى عهدهم من قرون... لكن هكذا نحن...

بل وأكثر ما يغيظ.. أن هناك أغاني (راب)... وهي نوع موسيقي أمريكي يهودي... يستخدمه الشعبان لسباب بعضهم بعضًا...

شعر بالاشمئزاز...

ودون كلمة أخرى، ضغط على زر مسح...

وظهرت الرسالة الإلكترونية أمامه.

"هل أنت واثق من أنك تريد مسح كل المقالات من ملفك؟"

ورغم توقفه كثيرًا أمام هذا السؤال؛ لأنه سيمسح مجهود سنين من إبداعه وفكره وروحه... ضغط على التأكيد...

ومسح كل مقالاته...

فقط كتب جانب (حالته) في ملفه:

"لا فائدة من الصراخ في أمة صماء... ولا جدوى من الإشارة.. في أمة لا ترى..."

* * * * *

قررت (ريم) ألا تنام كي تستطيع أن توقظ (عاصي) بعد ساعة ونصف...

شعرت بالملل، فدخلت على (الماسنجر) لتظهر لها رسالة على الفور:

- أما زلت مستيقظة؟!!!

كتبت في هدوء:

- أجل يا (عمر)....

- لماذا؟!!!

- لا أدري...

- (ريم)... هناك موضوع ما... أريد أن أحدثك فيه...

- ما هو؟!!

- لن أستطيع هنا... هل يمكنني مكالمتك هاتفيًا؟!!

- بالطبع... لا مشكلة...

لم تمضِ ثوانٍ حتى رن هاتفها، فردت لتجد صوتًا خفيضًا وهادئًا:

- (ريم)... أخبارك؟!

قالت بلهجتها المرحة البسيطة:

- لماذا لم تنم حتى الآن؟!!

قال بصوته الخفيض:

- أفكر فيكِ...

فاجأها رده، فلم تدرِ ماذا تفعل سوى أن تضحك قائلة في تردد:

- لا تمزح...

صمت لحظات طوال، فقالت مغيرة الموضوع:

- فيم كنت تريدني؟!!

طال صمته أيضًا، فشعرت بتوتر لا تدري مصدره، حتى قال لها:

- أريد أن أقابل أبيك...

ورغم أن الموضوع واضح، إلا أنها تساءلت، ترجو أن يكون قصده شيئًا آخر:

- لماذا؟

- ليس للأكل معه أكيد... أريد أن أخطبك...

تصاعدت دماء الخجل إلى وجنتيها لا إراديًا، فتردد صوتها وهي تردد:

- ماذا؟!!

قال بسرعة كأنما يخشى أن تخونه شجاعته:

- أعلم أن الموضوع مفاجئ... لكنك لا ترى... منذ أن بدأت العمل معنا أنا أكلمك وأهتم بك، لكنك لا تلاحظين إطلاقًا... حتى ظن أحد أصدقائي أنك تصنعين البلاهة... لأنه لا توجد فتاة لا تلاحظ مشاعري الواضحة أمامك...

وصمت لحظة منتظرًا ردها، فعندما لم ترد أكمل هو:

- لكني أعرف أنك لا تلاحظين ليس أكثر... فقلت أقصر الطرق هو الخط المستقيم... فلماذا لا أتقدم لك رسميًا؟!!

شيء ما جعلها تتجاوز ذلك الخجل الذي سيطر عليها، لتسأل في هدوء:

هل يمكن أن أسألك سؤال سخيف؟!!

- بالطبع...

صمتت لحظات تستجمع شجاعتها، ثم قالت:

- لماذا؟!

- لماذا ماذا؟!

- لماذا تريد أن تتزوجني؟!!

شعر بالارتباك من السؤال، ثم قال في تردد:

- لأنك جميلة...

قالها بصيغة سؤال، كأنما يقول "هل أعجبك هذا الرد؟!" فقالت باسمة:

- ما معنى جميلة؟!

صمت لحظات، ولم يجد جوابًا إلا:

- حلوة.. جميلة.. يعني... حلوة...

تقمصتها فجأة شخصية (العاصي)، فقالت بجرأة ما تفكر فيه بمنتهى الصراحة:

- وجه جميل وصدر رائع، أليس كذلك؟!!

ارتبك ارتباكًا شديدًا، فقالت بهدوء:

قل لي بصراحة ولن أغضب، فقط أريد الصراحة...

ظل على ارتباكه، ثم استجمع شجاعته قائلاً:

- أجل وجه مليح، وجسد جميل...

ثم قال كأنما تذكر شيئًا، فأكمل كأنما يعتذر:

- وبالطبع طيبة وذات دم خفيف ومحترمة...

ابتسمت في سخرية رغمًا عنها وقالت:

- أجل... كشراء موبايل جديد... شكل جميل وكاميرا رائعة... وبالطبع في خواص أخرى...

لم يدر ما يقول، فقال بلا معنى:

- لا أفهم... هذا طبيعي... أنا لا أعرفك حتى أرى أكثر من هذا... أنت لا تسمحين لي...

قالت مبتسمة في هدوء:

- حسنًا... سأعطيك أول فرصة لمعرفتي... سأخبرك شيئًا لم أخبره أحدًا من قبل...

صمت في لهفة، منتظرًا إجابتها، فقالت ببسمة حنون وصورة (العاصي) تحتل كيانها كله ونبرتها تدل على فخرها:

- أنا اسمي (رامي)...!

* * * * *

لم تتحدث (يسرا) بكلمة، حتى هدأ بكاؤه...

هدأ صوت نهنهته وبكائه المكتوم تمامًا، وهي صامتة، فقال بعد فترة صمت:

- آسف...

ابتسمت ابتسامة حنونة وقالت بهدوء:

- تأسف على ماذا؟!!

قال بهدوء:

– لأنني عكرت صفو مكالمتنا...

ضحكت في هدوء وقالت:

– لا تقلق...

قال بلهجة خجولة:

– توقعت أنك أنتِ التي ستبكين... ندمًا أو كرهًا لي...

ضحكت ثانية وقالت:

– أنت لا تعلم كم أنا مجنونة...

ثم صمتت لحظات مفكرة، وأكملت:

– الفكرة بمنتهى البساطة أنني أكره كوني فتاة... أو ذلك القيد الذي يحكمني لمجرد أنني أنثى... وعندما كنتُ في أسوأ لحظات حياتي، جئت أنت... فرصة لأكون حرة... لأفعل كل ما هو مجنون وغير معتاد... قد لا تفهم ذلك... ولا يفهمه أي أحد... إن حكيت قصتي وما فعلته الآن للناس... فربما كرهوني وحكموا علي أنني عاهرة... أعلم هذا... لكنني الآن أشعر أنني طائرة... أنا حرة... فعلت شيئًا وحدي ولم أخف من نظرة أحد لي...

ساد الصمت لحظات، فقالت:

– ألن تخبرني لماذا بكيتَ؟!

لم يرد على الفور، ثم قال بصوته الدافئ:

– لقد شعرت...

وصمت بعدها، فلم تفهم، وقالت لتستحثه:

– شعرت بماذا؟!!

حمل صوته نبرة ما، تدل على قوة خفية ظهرت بداخله:

– فقط شعرت...

وأكمل في هدوء غريب:

– منذ فترة طويلة... أبعد حتى من ذاكرتي أن تحتويها... وأنا لا أشعر... لا

أدري لماذا ومتى بدأ عدم إحساسي بالأشياء... هل عندما فشلت وأنا صغير... أم عندما سرت في الدنيا بلا هدف أو معنى... عندما مضيت في حياتي لا أختار، وأدع الناس يختارون لي، أم عندما فتحت عيني لأرى أنه لا أحد بجانبي، والكل تركني بلا روح... لا أدري... ربما كل هذا جعلني أموت تدريجيًا يومًا تلو الآخر... لأجدني في النهاية... لا أشعر...

صمتت مبهوتة، فأكمل:

– أنت لا تتخيلين معنى الموت وأنت على قيد الحياة... مات والدي فلم أبكِ عليه... وماتت والدتي فلم أشعر بالحزن... تزوجت، وعندها لم أفرح... وعندما أنجبت لم أشعر بالأبوه داخلي... فقط هناك طفل ما يأتي ليجعل حياتي عذابًا... ابنتي كان اسمها (ملك)... ورثت جمال أمها وذكائها... وورثت خفة دمي عندما كنت أملك روحي...

شعرت بالمفاجأة، عندما عرفت أنه متزوج وأب، في حين أكمل هو وقد بدا أنه لا يستطيع أن يتوقف:

– زوجتي كانت من اختيار أمي، كما كانت حياتي كلها من اختيار أبي... لذا لم أكن أحبها... لكنها كانت طيبة جدًا... تفعل ما تستطيع لتجعلني أحبها، وكنت معها جامد كتمثال... قد لا تتخيلين هذا... لكني لم أنم معها سوى مرتين أثمرتا عن (ملك)... رغم أنها كانت جميلة.. ويتمناها أي رجل... لكنني ببساطة.. لا أشعر... فكيف أريدها...

ثم صمت، وكانت هذه المرة أطول من المعتاد، ولكنها لم تتحدث، ظلت صامتة تمامًا تقديرًا لتلك الحالة من الصفاء النفسي الذي يمر به، في حين أكمل بصوت خفيض:

– حتى ماتتا.......

اتسعت عيناها في ذهول وصاحت:

– ماذا؟!!!

بهت صوته وهو يكمل:

— ماتت زوجتي... وابنتي ذات الأعوام السبعة..

صمتت تمامًا، وأكمل هو:

— منذ أسبوع واحد... كنت في عملي، وجدت أكثر من عشر مكالمات لم أرد على الهاتف، لم أرد على خمس منها لأنني ظننت أنها تريد أن آتي بشيء وأنا عائد إلى البيت... لذا تجاهلتها وتركت الهاتف وذهبت للمدير... حتى عدت... لأجد أباها يحدثني بصوت باك... يخبرني أن هناك حادثة...

بدأ صوته يرتجف، يقاوم موجة بكاء تأتيه ثانية:

— في الطريق الدائري... زوجتي بعد أن جاءت بابنتي من المدرسة كانت تقود السيارة... وفي تقاطع كبير تأتي عربة نقل ضخمة... يقودها سائق نائم أو يشرب المخدرات... ليصدم عربة زوجتي... فتنقلب العربة عدة مرات... ماتت زوجتي على الفور... لكن (ملك) ظلت حية لبعض الوقت...

سالت دمعتها رغمًا عنها وقالت:

— أتعني...؟!!

قال بصوت باك:

— إنها هي التي كلمتني كل تلك المرات... كي أنقذها.... وإلى جانبها أمها لا ترد عليها... وأبوها أيضًا لا يرد عليها... لأنه مات قبل أمها بكثير... فقط لحظتها... سلمت أمرها إلى ربها... كي يرعاها...

تصاعدت نهنهته ثانية، في حين انهمرت دموع (يسرا) رغمًا عنها...

فأكمل مقاومًا بكاءه:

— رغم ما حدث... لم أشعر... فراغ غير طبيعي داخلي... كائن أجوف من داخله... وقفت في العزاء مذهولاً... كيف لا أحزن؟... كيف لا أبكي؟.... إلى أي درجة متّ من داخلي؟! كيف لا أفتقدها؟! كيف قتلت ابنتي بيدي؟!!

وأكمل ودموعها تنساب:

— عدت لبيتي... ومن يومها لم أتحرك... ومنذ يوم واحد فقط، أمسكت

هاتفي... أريد أن أصرخ... أريد أن أحدث أي شخص... رجلاً كان أو امرأة... أريد أن أخبرهم كيف كنت قاتلاً... كيف قتلت عدة مرات...

بدأ صوته يهدأ ثانية، وهو يكمل:

— ثم سمعت صوتك عندما رددتِ على هاتفي...

وأكمل:

— شيء في صوتك جعلني أشعر براحة غير طبيعية... دهشت لأني شعرت هدوء حل بي... أنا لم أكن أريد مكالمة جنسية... كنت فقط أريد أن أتحدث وعندما شعرت بالخوف... خوف من أن أواجه نفسي... فقلت هربًا إنني أريد الجنس... عسى أن تغلقي غضبًا مني... لكنك أكملت... لتجعلي مقاومتي للكلام شيء أصعب.... كل ثانية مرت كنت أريد أن أخبرك من أنا... صوتك يدفعني للقول... وأنا لا أريد....

صمتت تمامًا تحاول أن تستوعب ما يقول، فأكمل:

— وعندما فعلنا ما فعلنا... قوة غير طبيعية حلت بي... فجأة وجدت كل شعور لم أشعره في حياتي يأتيني بقوة... ما بين سعادة واهتمام وحنين واشتياق و... حزن... وبكاء... لذا رغمًا عني... بكيت...

وساد الصمت...

* * * * *

هدوء غريب حل (بأمل)...

رغم بكائها تقريبًا طوال الليل... إلا أنها بعد أن حكت (لمصطفى) أخيها... شعرت أخيرًا بالهدوء... لم تحاول ثانية أن تكلم (محمد)... فقط ظلت صامتة تمامًا لا تفعل شيئًا إلا الصمت... والهدوء...

* * * * *

هبط (باسم عبد الرحمن) من بيته في السادسة والنصف، ووقف في الشارع منتظرًا حتى تأتي أي وسيلة مواصلات، فاقتربت منه عربة أجرة ليشير إليها بورقة مكتوب عليها "معهد الألسن"... فأشار له السائق في تعجب أن يركب، وعندما ركب قال السائق في مرح:

– ألأنك تسكن في تلك المنطقة الراقية، تخشى أن تقول معهد الألسن بصوت عالٍ؟!!!

ابتسم (باسم) في هدوء، فقال الرجل بضحكة:

– عجيب أمركم أيها البشر...

نظر إليه (باسم) متسائلاً، فقال السائق:

– أتعلم يا باشا؟! لي قريب.. شاب مثلك تمامًا... ابن أخي... طوال عمره يأتي بيتي، وأفعل معه الواجب وأتناول معه وجبة الغداء على حسابي... وعندما ضاق به الحال أعطيته نقودًا... حتى تخرج في الجامعة وعمل في مصنع كبير... ليزدهر حاله ويعيش عيشة كريمة... وانقطع عنا تمامًا لا يسأل عنا ولا يحدثنا... حتى في خطوبته لم يبلغنا... خطب ابنة أحد رؤسائه... المهم... شاءت الصدفة أن عربته تعطلت وهو مع خطيبته، فأشار إلى (تاكسي)، فوقفت له أنا... نظر لي وعرفني بالطبع... لكنه قال بلهجة متعالية ولهجة رسمية "المهندسين يا أسطى" وضغط على يا (أسطى) هذه وهو ينظر إلى خطيبته في خوف من أن أقول شيئًا... ففهمت على الفور... لكن قلبي رق... إنه ابن أخي في كل الأحوال... فأركبته معي هو وخطيبته... فتاة جوفاء، مظهر فقط ... المهم كي لا أطيل عليك... أوصلته للمكان الذي يريده... وعندما خرج من العربة، وأخرج حافظته، انصرفت دون أن أعطيه فرصة ليخرج منها نقودًا...

ابتسم (باسم) في هدوء، فأكمل الرجل:

– تسألني لماذا لم أتكلم... فلا أستطيع أن أرد عليك... أنا في حياتي كلها لا أتكلم... لا أستطيع أن أصرخ... إذا كان من حال البلد... وحال معيشتنا...

أنا أعود كل يوم إلى زوجتي في جيبي مئة جنيه تعيش بها يومنا وتنتهي، لأسعى في اليوم التالي لكسب مئة جنيه أخرى... كيف ولماذا وفي أي شيء أتكلم؟!!! من غلاء الأسعار أم من الفقر أم من "قلة الكرامة"؟!!! لقد تعودت على الصمت... ولم أتكلم مع ابن أخي، ولم أخبر خطيبته أنني عمه... رغم أن هذا أبسط حقوقي... لكن أخبرني أنت بالله عليك... هل نأخذ بالفعل أبسط حقوقنا؟!!!

وصمت... ثم أكمل دون حتى أن ينتظر إجابة (باسم):

– نحن الفقراء ليس لنا أي حقوق في هذا البلد...

وأوقف العربة أمام (معهد الألسن)، ليهبط (باسم) ويعطيه النقود، فيقول الرجل بابتسامة معتذرة:

– أوجعت رأسك بكلامي...

ابتسم (باسم) في هدوء وهو ينصرف، ليجد صديقته تقترب منه باسمة، ثم أشارت إليه إشارات خاصة بمعنى:

" لماذا تبدو حزينًا؟ "

أشار إليها بهدوء:

"..... لا شيء.... "

أشارت إليه متسائلة:

" هل ضايقك سائق التاكسي؟! "

نظر إليها لحظات، ثم أشار:

" إنه مسكين... "

لم تفهم، فأشار لها بابتسامة حزينة:

"إنه أخرس... مثلي ومثلك... "

* * * * *

" هيا يا (سارة)...."

قالها ذلك الرجل الطيب قريبهم، لترفع (سارة) عينها إليه، فقال الرجل:

- لا بد أن نذهب للصلاة عليه... ثم ندفنه في مدافن العائلة...

شعر (ياسين) بشفقة غير طبيعية نحوها، لكن أدهشه سكونها وقوتها، وهي تنهض في هدوء، ثم تقول:

- هذا (ياسين) يا عمي، وهذا عمي (ناصر) يا (ياسين)...

نظر (ناصر) بهدوء لـ(ياسين) فقالت (سارة):

- (ياسين) من أعز أصدقائي...

بدا هذا التقديم ليس في وقته إطلاقًا، لكن (ناصر) هز رأسه في طيبة وهو يسلم عليه، فقال (ياسين):

- البقاء لله...

- ونعم بالله...

ثم التفت إلى (سارة) قائلاً:

- هيا يا بنيتي... إكرام الميت دفنه...

بهدوء وصمت مضت (سارة) إلى خارج الغرفة خلفها عمها و (ياسين) الذي يعرج لإصابته، ومضى ذلك الموكب الصامت لينضم إليه كل من كانوا بالممر، حتى هبطوا نحو عرباتهم جميعًا، فوقفت (سارة) أمام عربتها، ثم قالت لـ(ياسين) بنظرة رجاء:

- هل يمكنك أن تقود أنت؟

قال بهدوء:

- بالطبع...

وأخذ منها مفاتيح العربة...

وانطلقا... وخلفهم باقي العربات...

ثامن الساعات

الساعة السابعة

احمرت عينا (أمنية) تمامًا، من كثرة النظر إلى شاشة الكمبيوتر طوال الليل، ومن كثرة ما قرأت من مقالات، تنشر ما يعجبها ويثير حماسها...

إصرار عجيب حل بها، وكل ما ترغب فيه هو الاستمرار في الدفاع عن ثورتها... لأول مرة تشعر بنفسها...

تعرف شخصيتها...

عندما كانت تنظر للشباب في سنها، لا تجد إلا نظرة الاستسلام والبلاهة في عيونهم، حتى تبنت نظرية أن معظمهم لا يعرف نفسه، ويفعلون ما يطلب منهم فقط، لا يعرفون من هم وماذا يريدون، لذا يعلو نظرتهم جمود ما... كإنسان آلي... مبرمج على فعل شيء ما...

وكانت هي منهم...

حتى قاومت، وعرفت ماذا تريد...

إغلاق تلك الصفحة...

رغم بلاهة الأمر، إلا أنها اكتشفت شخصيتها في تلك القضية...

قطع أفكارها ملاحظة صغيرة، أن كل ما نشرته في الساعة الماضية لا يظهر في الصفحة الرئيسية...

أدهشها الأمر، وأخذت تضغط على (تحديث الصفحة) فلم تجد أي شيء

يظهر باسمها، فانعقد حاجباها، لا تفهم ما يحدث...

كلمت صديقتها التي ردت عليها بصوت نائم، فأخبرتها (أمنية) على أن تنهض وتفتح صفحة الـ (facebook)، فنهضت صديقتها وهي تلعنها... لتخبرها في النهاية أن لا شيء يظهر مما نشرته... بل إن كل ما نشرته من قبل قد محي تمامًا...

وأغلقت (أمنية) الهاتف دون حتى أن تودعها...

ووقفت مذهولة.....

نظرت إلى الشاشة وملفها لا تستطيع الحراك... مجهود ثماني ساعات... ذهب... في غمضة.. أزيل...

كيف؟!!

دوت في عقلها كلمة عمها الهادئة بألف صدى...

" لكنك ابنتي... وأنا مثل أي أب... لن أسمح لأحد أولادي أن يؤذي نفسه... حتى لو كان هذا رغمًا عنه"

وتكررت كلمة "رغمًا عنه.." في رأسها آلاف المرات...

انسالت دموعها وهي تقف صامتة..

ماتت ثورتها..

تلك الروح التي ميزتها... ذهبت أدراج الرياح...

وبخطى بطيئة، كمن حكم عليه بالإعدام، جلست إلى الكمبيوتر...

ولأول مرة في حياتها، فتحت صفحة (الله) لتقرأ ما بها...

كلام ذلك الشاب، قمة في الإلحاد... قمة في الكفر...

لكنها لم تفتح الصفحة لتقرأ كلامه...

بل فتحتها لترى كلام الأعضاء...

ستة عشر ألف شخص...

ثم ارتفع حاجباها في ذهول من هول ما قرأت في أول الصفحة...

"(إسلام الحسيني) انضم حديثًا إلى الجروب "

كيف؟!!

هي تعرف (إسلام) وتعرف أنه محافظ...

كتب تعليقًا صغيرًا في آخر الصفحة، كلمات قليلة...

"إنه الضعف... إنه اليأس... هذه هي أسباب الضلال... في زمن ترك الكل هويته... وتاه كل شخص في هويته..."

لم تفهم النصف الأخير من الكلام...

أكملت القراءة، لتجد معظم التعليقات هكذا...

معظمهم بلا هوية...

لا يعرفون من هم... ولماذا خلقوا...

ضاع كل ما آمنوا به...

إنه الضعف.... اليأس... إنها صرخة احتضار...

وبدمعة على وجنتيها، قالت:

- هكذا يريدونها...

وأكملت باكية:

- أستغفر الله العظيم...

وضغطت على (اشتراك)...

ليصبح عدد الأعضاء ستة عشر ألفًا...... وواحدة...

* * * * *

لم يصدق (أحمد السيد) ما رآه عندما صعد الأتوبيس...

وجدها هناك... جالسة على أحد المقاعد...

سلم على بعض أصدقائه، ثم ذهب إلى (سلمى) وقال باسمًا:

وما هذا النور؟! إنها أول مرة تركبين معنا...

ابتسمت في هدوء وقالت:
تعطلت سيارتي... فقلت أركب معكم اليوم... وعم (علاء) وافق...
أراد أن يذهب ليقبّل عم (علاء)، لكنه ابتسم، فقالت له بهدوء:
– لماذا لا تجلس؟!

تردد بعض الوقت، ثم جلس إلى جانبها، فقالت:
– كلّمتك البارحة ولم ترد علي...
هز كتفيه وقال كاذبًا:
– كنت نائمًا...
هزت رأسها في تفهم، ثم قالت:
– وأخبار (فاطمة)؟!
قال في عدم تركيز:
– (فاطمة) من؟!!
وعندما ارتفع حاجباها في دهشة، استدرك:
– آه... جيدة...
– هل يمكنني أن أرى الدبلة؟!!
تردد لحظة، ثم أعطاها إياها، فنظرت إليها في هدوء، ثم ابتسمت في سعادة وأعادتها إليه، فنظر إليها متسائلاً، فقالت بهدوء:
– أنت لم تقرأ حتى ما بداخلها... أليس كذلك؟!
نظر بدهشة إلى الدبلة، ونظر إلى الإطار الداخلي لها ليجد مكتوبًا عليه:
"(محمد) و (أحلام)... 1979..."
ارتبك في حين ضحكت وقالت:
– كنت أعلم أنك كاذب...
نظر إليها لحظات دون أن يدري ما يقول... فصمت تمامًا...
رمقته في هدوء، ثم قالت باسمة:

– لماذا يا (أحمد)؟!!
نظر أمامه دون أن يرد عليها...
وعندما طالت نظرتها له، وقد شعر بها في جانب وجهه، أطرق إلى الأرض لحظات، وقال بصوت خافت تمامًا:
– كي أحميكي...
ارتجف قلبه وقلبها وساد الصمت بينهم لحظات طوال...
بأسلوبه، كان هذا اعترافًا صريحًا منه...
ولأنها تفهمه... أدركت...
فقط صمتت طوال الطريق، ولم يتحدث هو بكلمة...
وعندما وصلا للجامعة، هبطا معًا، ومشيا في هدوء...
فقط، التفتت إليه في سرعة، وقالت:
– (أحمد)...
نظر لها وهو يتوقف عن المشي، فقالت له بهدوء:
– لا تحميني...
وقالت مبتسمة:
– أنا مؤمنة... ومتفائلة... واعلم أنك تستطيع أن تفعل ما تقدر عليه...
نظر لها لحظات في صمت، لا يفهم، فأكملت وحمرة الخجل تتصاعد إلى وجنتيها:
– فلا تحميني من شيء... أنت لا تعرف مستقبله... لا تقتل طفلاً لمجرد أنه ابنك وسيصبح... في نظرك... فاشلاً مثلك... أعطه الفرصة... دعه يكبر... ربما يصبح هو كل ما تمنيته في حياتك... ربما أنت شخصيًا عندما تجد ابنك بهذه الروعة... تعرف معنى الأمل داخلك.. وترى نفسك تحيا...
وصمتت لحظات طويلة قبل أن تكمل:
– كما أراك...
وتركته وانصرفت مسرعة، تاركة إياه واقفًا كمسمار...

شيء واحد كان يتحرك داخله...

قلبه الذي كان يقاوم كل شيء في جسده، كي يركض خلفها ويستقر بين يديها...

وداخله... تصاعد قرار صارم...

لن يقتل ابنه...

لن يقتل حبه...

أبدًا....

* * * * *

"أشكرك....."

قالها الصوت في هدوء، فابتسمت (يسرا) وقالت:

– على ماذا؟!

قال بصوت جميل، ظهر فيه صفاؤه وراحته:

– أنت لا تعلمين ماذا فعلت بي... لا تصدقين سعادتي، إنني أشعر أساسًا بالراحة...

قالت بصوت خفيض:

– وأنت لا تعرف ما غيرته بداخلي أيضًا...

قال في سعادة ملحوظة:

– سؤال... هل بعدما عرفتِ كل شيء عني... تكرهينني، أم تحبينني، أم تشفقين علي؟!

شردت عينيها لحظات، ثم قالت باسمة:

– لا أدري...

وعندما صمت، أكملت بابتسامتها الصريحة:

– فيك كل شيء يجعلني أراك شخصًا جيدًا.. لكن أفعالك تجعلني أراك –

معذرة – حيوانًا... وفيك كل شيء يجعلني أكره كل ما أنت فيه...

ثم ابتسمت مكملة:

– أنت تذكرني بكلمة أقرؤها كل يوم على ظهر الأتوبيسات وعربات الأجرة...

قال في فضول:

– ما هي؟!

– الإحساس نعمة....!

ضحك بشدة، ثم قال باسمًا:

– هناك مقولة، قالها لي صديقي يومًا...

– ما هي؟!

قال بهدوء:

– " ما عجبت من رؤية الحياة مسلوبة في عيون الأموات... وعجبت من رؤية إنسان... ماتت الحياة في عينيه..."

ابتسمت ثم قالت باسمة:

– لماذا تبدو سعيدًا...؟!

قال في مرح:

– لأن هذا ما كنت أحتاجه بالضبط....

– ماذا تعني؟!!

صمت لحظات، ثم قال باسمًا:

– كل ما أردت إخبارك به هو.. شكرًا لك...

– وشكرًا لك أيضًا...

وساد الصمت، ثم .. ودون أن تدري لماذا .. سألت:

– هل ستكلمني ثانية؟!

صمت لحظات، ثم قال بهدوء:

– ربما...

شعرت بضيق لأنه أحرجها، فقال بسرعة:

– لا أحد يعرف ما يحمله الغد...

قالت وقد شعرت أنها تحتاجه ولا تريد أن تغلق:

– هل ترغب أصلاً في مكالمتي؟؟

شعرت به يبتسم في حنان وهو يقول:

– أنا أرغب في الحديث معك عمري بأكمله...

شعرت بالخجل من كلمته، فقالت مبتسمة:

– سأطلب منك طلبًا..

– أمرك...

بخجل قالت:

– هل يمكنك أن تكلمني عندما تستيقظ؟!

قال في هدوء:

– بالطبع... لكن...

ألصقت السماعة بأذنها، فقال ضاحكًا:

– إن لم أحدثك لا تغضبي... واعلمي أنك ملاكي الحارس...

فقالت بعند ليس أكثر:

– سأكلمك أنا...

قال بهدوئه الذي يشعرها بالراحة:

– سأكون في انتظارك...

وقال بعد فترة صمت:

– هل تريدين مني شيئًا؟!

صمتت لحظات طوال، ثم قالت بحنان:

– أريدك أن ترتاح...

بثقة قال:

– سأفعل...

قالت بسرعة:

– اسمي (يسرا)...

صمت لحظات طويلة، ثم قال بعدها بحسم:

– وأنا اسمي...

ثم صمت ثانية، وقال ضاحكًا:

– اسمي قوليه أنت... اختاري اسما يناسبك...

قالت بهدوء وهي تضحك:

– انت لا تعلم كم أنت سخيف... سأسميك أسخف إنسان في الحياة...

بضحكته الهادئة قال:

– أي شيء يناسبك...

قالت فجأة:

– سأسميك (البحر)...

– لماذا؟!

– لا أدري... أشعر أنه يناسبك...

صمتت لحظات، ثم قال في هدوء:

– حسنا... سلام يا (يسرا)...

وبضحكة قالت:

– سلام يا (بحر)...

وأغلقا....

* * * * *

كانت صلاة جنازة مهيبة...

كل عمال المصنع تركوا ما في أيديهم، ليصلوا على والد (سارة) في ذلك المسجد بالعاشر من رمضان...

ارتدت (سارة) إسدالاً أعطته إياها إحدى السيدات هناك... وصلّت معهم وحدها في قسم السيدات...

وعندما انتهت الصلاة، شارك في حمل تابوته أكثر من مائة شخص...

وانطلق موكب العربات إلى حيث مدافن العائلة، ليدفنوه... ويتلوا عليه القرآن، و(سارة) تقف مستكينة، صامتة تمامًا، ترتدي الإسدال نفسه...

اقترب منها (ياسين) ووقف بجانبها، لا يدري ما يقول، أو ماذا يفعل، فالتفتت اليه، وقالت بصوت متأثر:

- أشكرك...

قال بهدوء:

- هذا واجب...

وساد الصمت، حتى انتهت مراسم الدفن، وبدأ الناس في الانصراف، فذهب (ناصر) إلى (سارة) قائلاً وهو يربت على كتفيها:

- هيا يا (سارة)... اذهبي لبيتك لتنامي قليلاً... ولا تقلقي من أي شيء... سأذهب لأحجز في دار مناسبات من أجل العزاء... فقط اذهبي أنت لتستريحي وتأكلي شيئًا... لتستطيعي أن تشاركينا في تلقي العزاء...

نظرت له نظرة امتنان، ثم اتجهت ببطء إلى عربتها، وخلفها (ياسين) صامتًا حتى ركبا معًا وقال:

- هل أنت متأكدة أنك تريدين القيادة؟؟

أومأت برأسها أن نعم، ثم قالت بهدوء:

- يكفي إصابة قدمك التي تحتملها...

ثم أكملت بهدوء:

- سأوصلك لبيتك، ثم أعود أنا...

قال بسرعة:

- لا داعي للتعب... سأنزل في (موقف العاشر) وأركب أي شيء أعود به...

قالت بهدوء:

أرجوك... لست في بال رائق للمجادلة... سأوصلك وانتهى الأمر...

لم يعترض... وكانت آلام ساقه تفتك به...

وعادت بهم العربة إلى الطريق...

آخر الساعات

الثامنة صباحاً

عاد (محمد إسماعيل) إلى بيته، ليجدها هناك...

أمام عينيه، واقفة في كامل زينتها، تنظر إليه بلهفة... واشتياق...

اتجه نحوها، فبادرته قائلة:

- (محمد)...

أشار إليها أن تصمت، ثم قال بصوت هادئ:

- لا يصح أن نتحدث في الشارع يا (أمل)...

تقدمها ليدخل العمارة، ويصعدا إلى الشقة، لكنه لم يدخل إلى شقته، إنما فتح باب الشقة المقابلة.. شقة أبيه وأمه، لتستقبلهم أمه بابتسامة ترحاب متسائلة، وهي تقبل (أمل) في وجنتيها وتحتضنها في طيبة قائلة:

- نورتي البيت يا حبيبتي...

ابتسمت (أمل) في حضن أمه، شيء من الأمان الذي فقدته طوال تلك الساعات الماضية...

قال (محمد) بلهجته الهادئة التي لا تدل على شيء:

- لماذا لا تأتينا بالشاي يا أمي...؟

نظرت إليه أمه لحظات، وقد أدركت ما يقصده ابنها، فابتسمت في هدوء واتجهت نحوه، ثم همست في أذنه:

- سأذهب، ورغم أنني لا أعلم ماذا يحدث... لكن اهدأ عليها... إنها طيبة وابنة حلال...

وقبلته في رأسه، في حين نظر (محمد) لـ (أمل) بابتسامة وقال:

- تفضلي...

وجلسا في الصالة...

قالت متسائلة:

- لماذا أتيت بي هنا؟!

نظر لها ثم قال في هدوء:

- لا يصح أن نجلس في شقتي وحدنا...

ابتسمت وقالت في حيرة:

- أنا أثق بك...

علت شفتيه ابتسامة ساخرة.. تحمل داخلها الكثير من المرارة وقال:

- أنت تثقين بأناس كثيرين مؤخرًا...

طعنت كلمته قلبها، وقالت فجأة بتأثر شديد:

- والله العظيم هو كاذب... إنه لم يلمسني... لم يفعل شيئًا... أقسم لك بأنه...

أشار إليها إشارة صارمة أن تتوقف... ثم قال بهدوء:

- إن لي من الخبرة ما يجعلني أعرف إن كان الشخص الذي أمامي يكذب علي أم لا...

- وما رأيك فيما قاله؟!

هز رأسه بلا معنى، ثم قال بثقة:

- إنه كاذب في أشياء، وصادق في أخرى...

نظرت ولم ترد، فأكمل بهدوئه:

- كاذب في كل ما يتعلق بلمسك وتلك الأشياء... كاذب فيما يتعلق بأنه أراد أن يتركك عندما عرف من أنا... كاذب فيما قال إنه مستمر في الكلام

معك شفقة...

نظرت له، وعلت شفتيها علامة راحة، لكنه أكمل:

- وصادق في أنك أنت من أردت أن تعودي إليه بعد خطبتنا... صادق في أنكما خرجتما معًا البارحة... وصادق في أنك لا تراعين حرمتي ولا حرمة بيتك...

اختفت ابتسامتها تمامًا، وساد الصمت، ليقطعه دخول أمه حاملة صينية الشاي، لتضعها على مائدة صغيرة، ثم نظرت إليهما وقالت بابتسامة:

- هل أحضر لكما الافطار؟!

قال (محمد) بابتسامة مشيرًا لـ (أمل):

- ما تأمر به (أمل)...

نظرت له أمل، بدموع مكتومة في عينيها، ثم نظرت لأمه متصنعة ابتسامة:

- شكرًا يا أماه... لا تتعبي نفسك...

ربتت أمه على كتفها قائلة بابتسامة حنون:

- أنت تبدين ضعيفة... ثم هل تعرفين عن خالتك أنها بخيلة؟!... إن لم أتعب من أجل ابنتي فلمن سأتعب...؟!!

شعرت (أمل) برغبة شديدة في البكاء؛ لأنها لا تستحق كل هذا الحنان من أمه، لكنها تماسكت ناظرة إلى (محمد) بينما قالت أمه في هدوء:

- سأذهب لأحضر الإفطار...

وذهبت، وقبل أن تغلق الباب، أشارت إلى (محمد) أن يحنو عليها قليلاً...

قالت (أمل) بعد فترة صمت:

- أنا أحبك...

وترد عليها ابتسامة (محمد) الهادئة:

- وأنا لا أصدقك...

فتنظر إليه (أمل) بحزن، ليكمل حديثه:

- أنت مسكينة يا (أمل)... أنت لا تحبين إلا نفسك... لا تحبين إلا من ليس

في يديك... لكنك تنسين أنك عندما كنت مرتبطة بـ (أيمن) – رغم حبك له – كنت كل يومين تشعرين أنك لست له... وأنه لا يقدّرك... ويعاملك معاملة سيئة... وأنك تريدين الانفصال... فقط لأنه كان موجودًا... لأنه مضمون... فشعرت أنك لا تريدينه...

وصمت لحظات ليكمل بابتسامة:

– حتى تركك... ووجّه لك صفعة كبيرة...

نظرت إلى الأرض في حزن ليكمل:

– ليجعل رغبتك فيه تزيد... إنك تعشقين المستحيل لمجرد أنه مستحيل... مسحت من ذاكرتك كم كنت غير مرتاحة معه... لم يبق في ذاكرتك إلا كم تحبينه... الفكرة المثالية لمن يعيش في دور الضحية... ثم تزوج هو... لتزيد فكرة استحالته... فتزدادين رغبة فيه... وتكلمينه وتعودين له...

انسابت دموعها غزيرة وصامتة، ليكمل بهدوء وقوة وثقة، لم ترها فيه من قبل:

– إنه مرض... أعانك الله عليه... أنا أشفق عليك منه حقًا...

ثم ابتسم مكملاً:

– أتعلمين لماذا تشعرين أنك تحبينني الآن فقط؟!

نظرت إليه متسائلةً، فأكمل بابتسامة:

– لأنني أبتعد... سأصبح مستحيلاً آخر ترغبين فيه... فجأة مسحت من ذاكرتك كل شيء له علاقة بـ (أيمن)... وأصبحت أنا كل شيء...

ثم نظر إليها وقال:

– سأسألك سؤالاً واحدًا فقط... بل سؤالين في الحقيقة...:

– كيف تضعين نفسك في موقف يقول فيه شخص حقير مثله عليك هذا الكلام؟!... هل أنت رخيصة على نفسك إلى تلك الدرجة؟!!... ما من أحد يرى (أيمن) إلا ويعرف أنه كاذب ولا يحب إلا نفسه... كيف تكونين عمياء لتلك الدرجة؟؟!!!... كيف تضعينني في هذا الموقف؟! ضابط شرطة محترم

يسمع هذا الكلام عن زوجته؟ ... كيف؟!!!

لم تنطق بكلمة...

صفعات متتالية وجهها إليها بكلامه، ولا تقدر حتى على التأوه...

عاد بظهره للوراء، وقال بالهدوء نفسه:

– والسؤال الثاني الذي أيًا كانت إجابته... سأفعلها...

نظرت إليه متسائلة، فقال:

– ضعي نفسك مكاني، وانظري بعيني... أنا أحبك أكثر مما تتخيلين... ويمكنني أن أسامحك على أي شيء تفعلينه... حتى ما حدث مع أيمن، يمكن أن أسامح...

نظرت إليه غير مصدقة، فقال ببسمة حنون:

– أجل... أنا أحبك لتلك الدرجة...

بهتت من إجابته، لكنه أكمل:

– لكن سؤالي هو....

وصمت لحظات... ربما ليعطي سؤاله الأهمية الكافية:

– لو أنك مكاني... وتنظرين بعيني... هل ترين أنني أستحق هذا؟!... هل ترين نفسك زوجة صالحة لي... هل تستحقين كل هذا الحب مني؟!... أم لا؟!..

لحظتها دخلت أمه قائلة:

– الفطور جاهز...

فقط لتجد (محمد) و (أمل) ينظران إلى بعضهما في صمت...

ثم همست (أمل) بالإجابة...

* * * * *

هبط (أحمد العاصي) مسرعًا؛ فقد تأخر على العمل، رغم أن (ريم) كانت

توقظه من الساعة السابعة والنصف، إلا أنه هبط متأخرًا...

كانت المكتبة على بعد عشر دقائق من البيت، فمضى إليها بسرعة يكاد يركض، ليستقبله زميله بابتسامة قائلاً:

– تأخرت يا (عاصي)

ذهب مسرعًا ليرتدي القميص الرسمي للمكتبة؛ فقد كانت مكتبة كبيرة...

بدأ عمله البداية المعتادة، لتمر نصف الساعة كالمعتاد، عندما أتى إليه زميله يخبره أن هناك من ينتظره في الخارج، فذهب (عاصي) متعجبًا....

ليجد (ريم) واقفة في الخارج، تنظر إليه بابتسام...

بدت في قمة الجمال، فارتفع حاجباه في دهشة، وقال باسمًا:

– كيف أقول لك (رامي) بهذا الجسد الرائع؟!!

ضربته في كتفه بحقيبتها، ليضحك وتضحك معه لحظات، ثم تساءل:

– هل يمكنني سؤالك عن هذه الزيارة الجميلة يا (رامي)؟

هزت كتفها بلا معنى، ثم قالت باسمة:

– قلت أتأكد من أنك ذهبت لعملك سالمًا!

هز رأسه في أسف وقال:

– كم أنت فاشل في الكذب يا (رامي)...

ضحكت بخجل، ثم مدت يدها في حقيبتها، ليقول لها مازحًا:

– مستورة والحمد لله...

ضحكت ثانية، ثم أخرجت من حقيبتها هدية، ملفوفة بقماش أحمر أنيق، مدت يدها إليه بها قائلة بابتسامة:

– كل سنة وأنت طيب...

ارتفع حاجباه في دهشة، كأنما فاتت هذه المناسبة – عيد ميلاده – من ذاكرته تمامًا، فنظر إليها بابتسامة وهو يأخذ الهدية، ويبدأ في فتحها ببطء...

ثم رآها...

كانت مربعًا خشبيًا رقيقًا، عليه صورة مطبوعة بالليزر، لوالد ووالدة

(أحمد)، أمامهما طفلين ضاحكين، يضع أحدهما يده على الطفلة الأخرى بجانبه، ويضحك الاثنان في براءة جميلة...

كانا (أحمد) و (ريم)...

قالت باسمة:

– اقرأ ما كتب خلفها...

أدار المربع في دهشة ليجد كتابة...

<< سأظل أراك هكذا مهما فعلت...

ذلك الطفل الحنون الذي كان يبكي عندما أعود لبيتي آخر اليوم...

ذلك الطفل الذي ضرب ثلاثة من أصدقائه؛ لأنهم أخذوا (مصاصتي) فبكيت...

وذلك المراهق... الذي عرف كيف يحتويني بآرائه، وكيف يجعلني أثق به...

ثم ذلك الشاب الذي مات داخله ذلك الطفل الذي أعشقه...

لكنه ما زال يبهرني بأن يحيا بعد كل ما مر به...

ستظل في عيني نعم الأخ... والصديق... والأب... والحبيب... فقط...

لأني ما زلت أراك كما لم يرك أحد من قبل...

(رامي)...>>

نظر إليها بذهول...

رغمًا عنه، ترقرقت دمعة في عينه ولم يتكلم...

ونظرت إليه في حنان...

كل كلمة قالتها هزت كيانه...

بصوت مبحوح، متأثر، قال:

– أنا لا أدري ماذا أقول...

أنارت ضحكتها وجهها وهي تقول:

— لا تقل شيئًا... هيا... عد إلى عملك... لا أريد أن يخصم لك يوم بسببي...

صمت تمامًا ثم قال:

— أشكرك...

وقبل أن ترد، قال بهدوء:

— يا (ريم)...

شعرت بسعادة غير طبيعية، ولم تكن تعرف كم كان اسمها جميلاً إلا عندما نطقه....

ابتسم عندما وجد سعادتها، في حين أدارت له ظهرها لتنصرف، فصمت لحظات ثم صاح:

— (ريم)...

التفتت نحوه وقلبها يرقص فرحًا، فركض نحوها قائلاً:

— هيا بنا..

نظرت إليه متسائلة، فقال ضاحكًا:

— أريد أن أبقى معك... لا أستطيع أن أتركك الآن...

ابتسمت في سعادة، فقال بسرعة:

— سأغير ملابسي في دقيقة وأنطلق معك...

وتركها وهو يركض ليدخل المكتبة، ثم لم يلبث أن عاد راكضًا نحوها لتنظر إلى متسائلة، فقط ليقول ببسمة:

— يا (ريم)...

ضحكت بشدة، ثم قالت بحنان:

— قلها ثانية...

صاح في حماس:

— يا (ريم).. يا (ريم).. يا (ريم).. يا (ريم)...

وتركها ليركض عائدًا للمكتبة...

خلفه نظرتها العاشقة...

* * * * *

نامت (يسرا) كما لم تنم من قبل....

ابتسامة تعلو شفتيها حتى وهي نائمة...

تقلبت في نومها، لتجد جرس الهاتف يضرب، فنهضت في تكاسل لتنظر للنمرة، فوجدتها نمرته تظهر باسم (بحر)، فابتسمت في سعادة، وذهب كل أثر النوم من عينيها، وهي ترد مبتسمة:

— استيقظت بدري...

صوت غريب رد عليها:

— السلام عليكم...

اعتدلت في جلستها ليكمل الصوت الغريب:

— هل تعرفين صاحب هذا الهاتف؟!

شعرت بالقلق، وهي ترد:

— أجل... هل هناك مشكلة؟!

قال الرجل في حيرة:

— هل يمكنك أن تخبرينا باسمه أو مهنته أو أي شيء؟!

شعرت بالحيرة وهي تقول:

— أنا لا أعلم أيًا من هذا...

صاح رغمًا عنه في حنق:

— ولا أحد يعرف... جيرانه قالوا إنه انتقل إلى هنا منذ أسبوع ولا يعرفونه...

قالت وقد تصاعد القلق داخلها:

— ماذا حدث؟!

قال بحنق:

— في الساعة السابعة والنصف، جاءنا بلاغ عن أن هناك شخصًا ألقى بنفسه من الدور الرابع عشر.. فنأتي هنا... لنجد جثة ملقاة في الشارع... ولا يعلم أحد عنها شيئًا...

شعرت بروحها تذهب منها، ولم تصدق أذنيها وهي تقول:

— انتحر؟!!!!

صاح الرجل:

— أجل... بلا خطاب أو مذكرة أو أي شيء... لا أحد يدري أي مصائب تهبط على رأسه....

لم تسمعه والهاتف يرتطم بالأرض في عنف...

كيف تريد أن تصرخ... وكيف لا تستطيع...؟!!!

ما هذا الفراغ القاتل الذي حلّ بها...

هي لا تعرفه.

لم يدخل حياتها أبدًا إلا منذ بضع ساعات...

في يوم ما...

كيف تشعر بكل تلك الوحدة؟!!!

كيف تبكيه الآن كمن يبكي حبيبه؟!!!

وكيف يفعلها؟!!

لقد كانت تنتظره...

كيف لن تسمع صوته الدافئ الحنون ثانية؟!...

دوى كلامهما في عقلها كرصاص...

«أريدك أن ترتاح...»

«سأفعل..»

«أعلمي أنك ملاكي الحارس...»

«لا تغضبي..»

«ماتت الحياة في عينيه...»

كلام بلا معنى... وبلا ترابط...

لكنه يحمل صوته...

الدافئ.. الهادئ.. الحنون...

إنها وحدها...

كل هؤلاء الأصدقاء... وهي وحدها تمامًا...

لم يفهمها سواه...

أمسكت هاتفها من على الأرض ونظرت إليه مليًا... ودموعها تغرق وجنتيها...

ودون أن تدري، وجدت نفسها تطلب رقمًا غريبًا...

وتنتظر في هدوء ليرد عليها أي أحد...

أي أحد...

* * * * *

وقفت عربة (سارة) أمام بيت (ياسين)، وتبادلا النظرات، ليقول (ياسين):

- هل أنت متأكدة أنك لا تريدين أي شيء مني؟!

حاولت التماسك، لكن خانتها دمعتها، وهي تهز رأسها بالنفي لسؤاله قائلة:

- أنا لا أستطيع أن أشكرك بما فيه الكفاية...

هبط من العربة، ثم ألقى عليها نظرة طويلة، قبل أن يقول:

- وداعًا...

- وداعًا...

قالتها بصوت خافت، ليتركها (ياسين) ويذهب نحو باب عمارته بهدوء...

صعد السلم بخطى بطيئة، تدور في عقله أحداث اليوم كلها...

كان يومًا طويلاً، والمثير للسخرية، أنه مازال في بدايته...

توقف فجأة ليتذكر شيئًا مهمًا.. تذكره مع ذلك الصداع...

إنه لم يأتِ بالسجائر...

في تأفف، هبط ثانية ليخرج إلى الشارع...
ليجد عربتها واقفة في مكانها لم تتحرك...
ذهب إليها مندهشًا، ليجدها تبكي في صمت...
رفعت عيناها المليئتان بالدموع، ونظرت إليه..
ولم يتكلما فترة طويلة.. فقط، أخذ كل منهما يتبادل النظر إلى الآخر..
ثم قالت بصوت ضعيف:
- أنا تائهة...
ارتفع حاجباه في حنان، وهي تكمل:
- لا أدري أين أذهب، ولا أين أنا...
صمت ناظرًا إليها بحنان شديد...
ودون أن يتكلم، اتجه نحو الباب الثاني، وفتحه ليجلس إلى جانبها في صمت...
ابتسمت رغمًا عنها في حنان، وقالت بصوتها الباكي:
- إلى أين؟!
نظر إليها لحظات، ثم قال بثقة:
- أي مكان تذهبين إليه...
نظرت إلى ساعتها، ثم ارتفع حاجباها في دهشة وقالت:
- لقد عادت الساعة إلى العمل...
نظر إليها نظرة تحمل ألف معنى، فقالت له بخفوت:
- فيم تفكر؟!
صمت لحظات، ثم نظر إلى نافذة العربة كي لا تفضحه عينه العاشقة.. وقال في هدوء:
- أفكر في الإقلاع عن التدخين...
ورغم أنها لم تفهم إلا أنها ابتسمت...
وانطلقت العربة بهما...

محمد صادق

كاتب روائي. كانت روايته (بضع ساعات في يوم ما) "الأكثر مبيعًا" في المكتبات. عمل بمجلة كلمتنا لمدة أربع سنوات تولى منصب مسئول باب الأدب في المجلة لمدة ثلاث سنوات. يدرس حاليًا في كلية إعلام القاهرة الجامعة المفتوحة. له العديد من القصص القصيرة والمقالات نُشرت في المجلة وفي المواقع الإلكترونية والفيس بوك.

للتواصل على الصفحات الاجتماعية:

https://www.facebook.com/MOHAMEDSADEK25

والجود ريدز:

http://www.goodreads.com/user/show/7104215

صدر له:

- طه الغريب (رواية)، ط١: (٢٠٠٩ ـ ٢٠١٠)، ط٢: (٢٠١٢ ـ ٢٠١٣)، دار الكتب للنشر والتوزيع.
- بضع ساعات في يوم ما (رواية)، ط١: (٢٠١١ ـ ٢٠١٢)، ط٢: (٢٠١٢ ـ ٢٠١٣)، دار الرواق للنشر والتوزيع.

الصفحة الإلكترونية على الفيس بوك والجود ريدز:

https://www.facebook.com/sadek.bed3sa3at

http://www.goodreads.com/book/show/13151283

- هيبتا (رواية)، ط١: (٢٠١٣ ـ ٢٠١٤)، دار الرواق للنشر والتوزيع.